الفصل الثانى والخمسون

الموكب السادس للأعياد طبق ما جاء فى قانون مصر

وهو موكب دخول الباشا مصر

سبق أن تحدثنا عن موكب الباشا هذا، عند ذكر مواكب جند مصر وطرقاتها ورتبها وعدد أفراد فرقهم العسكرية ومرتباتهم السنوية إلا أننا سوف نذكر هنا ألزم لوازم الباشا فى هذا الموكب وكل أحواله.

يسمون هذا الموكب «موكب الاستقبال». وعندما يكون الباشا فى طريقه إلى مصر يمضى الچاويشية من ولاية إلى أخرى لحشد الجند من جميع الأرجاء قبل مقدم الباشا إلى مصر بشهر واحد، فى مدينة القاهرة وذلك لاستعراض عظمتها وضخامتها ويحتشد مائة ألف من الجند يمثلون جيشا جرارا كأنه البحر.

وإذا ما تأخر وصول الباشا فإن الخلل يلحق بتجارة الشهر حواله[1]. وألزم لوازم الباشا هى أنه يرسل السعاة واحد تلو الآخر إلى الشهر حواله ليعرفه بكل موضع يبلغه الباشا وموعد وصوله ويشد ذلك من أزره ومن أزر القائم مقام ويأمنان القيل والقال.

كما ينبغى أن يأتى مبعوث الباشا من غزة ليبلغه أن الباشا سوف يصل فى يوم كذا فى شهر كذا إن شاء الله الرحمن. وهذا من ألزم لوازم الباشا. لأنه فى ذلك اليوم يخرج جميع أغوات الأوجاقات العسكرية فى مصر حاملين الهدايا والخيام لاستقباله.

ويحضر كتخدا الجاويشية مع سرادق كبير، ومعه على خمسن جملا محمله بماء النيل صندوق من سكر النبات ومائة وعاء تحمل الأشربة المتنوعة وكميات ضخمة من الفاكهة وعشرين جملاً تحمل الخبز الأبيض الخاص والسُوريك[2]. وما إلى ذلك من صنوف الطعام والشراب. بالإضافة إلى جواد مطهم عليه سرج مرصع بالجواهر وعنان ذهبى وسيف مذهب ذو حدين ودبوس مرصع وقباء مقصب وطواشى وثلاثة أكياس من النقد. ويهيئ كتخدا الباشا كل ذلك لاستقبال الباشا.

(١) الموظف المسئول عن إدارة الشئون البلدية بالمدينة.

(٢) السُوريك نوع من الفطائر.

أما التحف والهدايا التى تقدم إليه بعد بلوغه القاهرة، فتكون تبعاً لإسم الباشا وما عُرف عنه وجرأته فهم مهرة فى أعمال الطرافة والنقش. وما أن يرووا الباشا حتى يدرك إن كان عسلاً أم سمناً. أما سُماً وله طبيعة الماء البارد. فإذا ما وضُع على المحك. عرفوا عياره الذى يعاملونه تبعاً له.

ثم يمر كتخدا الجاوشية ومعه مائتان من لابسى العمائم المجوزة، وثلاثة مائة من لابسى الـ «طاس» وهم جاوشيه. أصحاب مكر وسوء طوبه وقد شيّع كل واحد منهم أربعين أو خمسين باشا (ذوى منطق وعقل أرسطو).

وثم جاء رئيس المتفرقة بهداياه مثل كتخدا الجاويشية إلا أن جواده لم يكن له سلسلة من ذهب ولكن جميع هداياه فاخرة ومضى وفى معيته مائتان من مشاة المتفرقة حاملين خيامهم.

ثم كان الدور على رئيس التراجمة وهداياه أدنى درجة من سابقيه ومضى معه عشرة من الجلادين.

ثم خرج رئيس جاويشية الانكشارية ومعه مائتان من ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم عمامة اللباد والصوف لاستقبال الباشا. إلا أن هؤلاء لا يقدمون أى هدايا للباشا. ولأن كل ملازمى الانكشارية يسيرون على الأقدام يتقاضون من الباشا ألف باره فى اليوم ورئيس الشاويشية يتقدم الباشا مترجلا ويتقاضى راتبا يوميا قدره ألف باره. ويمنح سقاء الانكشارية ثلاثمائة باره - كما ينال مشاة المتفرقة ثلاثمائة قرش.

وخامس من مضوا لاستقبال الباشا هو مسلمه وقد أعد كذلك من أجل الموكب ثلاثة أحمال من حمول الجمال ومضى ومعه الأحذية والخفاف الخاصة بأغوات قصر الباشا وقباء من فرو للباشا وكنانة وسيفا مرصعين بالجواهر وسراويل مخملية حمراء وعمامة سليمية وريشتان وحذائين شركسيين وسرج محلى بالجوهر وسلسلة من ذهب وعمود وجواد مطهم.

وكان كتخدا القائم مقام سادس من خرجوا لاستقبال الباشا وقد مضى ومعه جواد مطهم سرجه محلى بالجواهر.

وصل هؤلاء من القاهرة إلى مدينة الصالحية فى اليوم الرابع ومكثوا فيها وانتظر جميع الجند مقدم الباشا لأنه إذا ما تجاوز الباشا غزة فإنه يعبر صحارى العريش والقطية وأم الحسن وكلها صحارى مجدبة موحشة والعياذ بالله.

إلا أن مسلم الباشا مضى من الصاحية إلى العريش ومعه الهدايا مع ألف من فرسان كاشف الشرقية والشهر حواله لتقديم هداياهم إلى الباشا.

وفى تلك الليلة أقام كاشف الشرقية وليمة للباشا وغادر الباشا العريش فى تلك الليلة ووصل إلى جسر ( )[1] فى ست ساعات واستراح الباشا فى ذلك المكان وقدم عليه فى هذا الموضع كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة وكتخدا القائم مقام ومعهم كل هداياهم والتقوا بالباشا وقدموا له هداياهم وقَبِلَهَا.

إلا أن رئيس الانكشارية ظل فى الصالحية وفى ذلك الوقت تناول الباشا الفطور ثم تابع سيره إلى الصالحية وعندما اقترب منها وقف رئيس شاويشة الانكشارية مع مشاة الملازمين وقبلوا الأرض فالتفت إليهم الباشا وتقدموا نحوه ومضى رئيس شاويشية الانكشارية مترجلا وفى قدمه حذاء أحمر وحول خصره حزام. إلا أن عبدى باشا كبير الملاحين والذى كان بلغ من الكبر عتيا سمح له بركوب الجواد ولم يكن هذا بصفة رسمية وإنما بصفة ودية ولكنه اعتذر قائلا: إننا فى فرقتنا فى الأستانة كنا نخاف من ركوب الخيل.

فقال الباشا أنا الوزير المعظم لقد كنست بنفسى ضريح حاجى بكتاش ولى قبل أربعين عاما ولقد أذنت لك فامتط صهوة الجواد.

وعندئذ كان من اللازم أن يقبل ركبة الباشا ولقد أنقذنى فى مصر كونى من مسنى فرقتى ولكى لا يتهمونى بخرق القانون التمست العذر، وركب الشاويش الجواد بمساعدة ستة من الجند وأراد الباشا أنى تفكه فقال له لقد تقدمت فى السن بحيث لا تستطيع ركوب الخيل إلا بمساعدة سبعة من الرجال. فرد على الوزير قائلا: ولكن ليس بمقدور عشرين من الرجال أن ينزلونى عن جوادى. فضحك الباشا ومنحه أربعة وسبعين دينارا من ذهب وعلى هذا النحو دخل الباشا مدينة الصالحية فى موكب عظيم ونزل فى سرادق عظيم وجلس على كرسيه وكان ذلك أول جلسة للديوان يعقدها فى هذا السرادق. واستمع الباشا إلى بعض القضايا الهامة وفصل فى بعض المنازعات.

(١) بياض فى الأصل.

وخاف المصريون من أحمد باشا الدفتردار فى هـذا المكان ولم يقبل حبة قمح من أحد وتصدق كل أحد حسب استعداده ومقدرته وفصل فى الدعاوى مثل القاضى عسكر.

وعندما نزل الباشا إلـى حجرته نحر مائتين من الغنم وخمسـين عجلا وعشرة جمال والتهمها البدو والفقراء المعدمون وغادر البـاشا الصالحية وعندما بلغ «أم القُرين» وزعت الهدايا على جميع الجند كأنها فيضان النيـل، وأقام كاشف الشرقية مأدبة عظيمة للباشا، وبعد الفراغ من الطعام امتطى الباشا صهوة جواده المطهم وبلغ قصبة «أم القُربن»، وأقـام هناك فى سـرادق جميل عقد فـيه الديوان كذلك ونـال الهدايا من أغوات الأوجـاقـات السـبعـة. وسوف نصـف هذه الهـدايا عند حـديثنـا عن قانـون مصر فيـما يخـتص بالتشريفات.

ولقد خرج أهل أم القـرين لاستقبال الباشا عندمـا اقترب منها الباشا، كمـا استقبله كذلك الروزنامجـى وكل أرباب الديوان وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجـاقات السبعة وقَبَّلَ الجميع يد الباشـا، وانعقد الديوان فى مدينة بلبيس كذلك، وحـيث إنها تعد مقرا لكاشف الشـرقية أقام وليمة عظيـمة للباشا أنفق عـليها خمسة عشر كـيسا ودامت هذه الوليمة أربعة أيام. وفى هذا الديوان أصبح شيخ العربان عايد (صاحب الدرك)، ولكى يتم عبور عسـاكر الإسلام فى سهولة ويسر ثبت هـذا الشيخ فى منصبه كرئـيس لقبائل عايد ونال خلعة فاخرة. وقد أحضر خمسة جياد فارهة .

ثم غادر الباشا أم القـرين وفى طريقه إلى «الخانكاه» أقبل عليـه أمير الحج والدفتردار وأرباب الديوان وتوجه إلى «الخانكاه» فى موكب عظـيم وهناك عقد ديوانا عظيما ولأنها أرض كاشف قلـيوب أقام كاشفها الولائـم العظيمة للـباشا ومن معه وقدم إليـه خمسة برازين يصل ثمن كل واحد منها إلى ألف قرش، وفى هذا الديوان خلعت خلعة فاخرة على شيخ عرب الدشيـشة وثبت فى مشيخته، وجاءه الكثير من أعـيان القاهرة، والتقوا مع الباشا، وعندئذ قـدم القائم مقام فى موكب عظيم وقبل يد البـاشا وقدم إليه الهدايا من الجواهر، وقدم للقائم مقام القهوة والشراب والبخور، ثم عاد ثانية إلى القاهرة وفى معيته الشهر حواله. وقدم الكثير من أعيان القاهرة كذلك لتقبيل يد الباشا.

ذكر موكب العادلية والولائم الريانية
والديوان العثمانى وأفراح القاهرة المعزية

وفى اليوم التالى قدم الباشا إلى العادلية فى موكب عظيم استغرق خمس ساعات، ونزل فى سرادق سلطانى غاية فى الفخامة والأبهة، وعفر كبير معدى السماط جبينه على قدم الباشا ودعى الباشا إلى المأدبة قائلا: نحن عبيد فى خدمة مولانا السلطان، فليتفضل مولاى إلى الطعام.

وجلس الباشا على رأس السماط وعلى يمنته أمير الحج وعلى يسرته دفتردار، وجلس الأمراء وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجاقات السبعة وسائر قدامى الفرق العسكرية يتناولون الطعام، وعقب الفراغ من ذلك دعى شاويشية الموكب جميع الأغوات لحضور الديوان واعتلى الباشا منصة العدل فى العادلية وعزفت الموسيقى العسكرية وأقيمت الدعاوى وفصل فى الخصومات، ثم رفع الديوان على أن يعقد فى اليوم التالى. ونادى شاويشية الموكب فى الحضور ونبهوا عليهم إلى أن الإقامة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

وقدم أهل القاهرة إلى ساحة العادلية بخيامهم صغيرة كانت أو كبيرة، مستأجرة كانت أو مستعارة وأقاموا خيامهم تلك ومكثوا فيها. وأقيم فى هذه الساحة عدة آلاف من الخيام فأصبح كذلك أشبه شىء بمعسكر عظيم للجيش، وفى تلك الأيام لم يبق أحد فى بيته بالقاهرة وازدانت ساحة العادلية والطوبخانة وساحات سبيل علام والغورية بالخيام والسرادقات المزينة وكأنها روضة ورد يغمرها مظاهر السرور والبهجة ليل نهار وازدانت كذلك بآلاف القناديل فأصبحت تلك الليالى كأنها ليلة القدر، أما نهارها فنهار العيد. وأقيمت الألعاب النارية فى سماء العادلية وأطلقت آلاف المدافع والبنادق من الخيام هز دويها الأرض والسماء، وعلق على أعمدة الخيام والسرادقات ما يقرب من ثلاثة آلاف قنديل، وشكلت هذه القناديل صورا جميلة كالشمس وخاتم سليمان والقصور وبدت كأنها نجوم.

وأمام سرادق الباشا ربطوا سوارى السفن حتى بلغ ارتفاعها ذروة السماء وعلقوا فيها ما يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠ قنديل فبددت أنوارها ظلام الليل إلى نهار.

وقدمت الهدايا إلى الباشا فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال وكانت الهدايا بالقدر الذى ينوء خدام الموكب عن حمله وقدم كل بك من البكوات جوادا ذا سرج مزين بالجواهر أما دفتردار القائم مقام فقد قدم جوادين زين سرجهما بالجواهر وسلسلتين من ذهب. كما منح الباشا هدايا نفيسة أخرى.

وقدم أغوات الأوجاقات السبعة والأغوات الزنوج المصاحبون للسلطان وبكوات الشراكسة والروزنامجى أفندى وموظفو الإدارات السبعين والأمناء السبعون والكشاف السبعون والملتزمون الذين لا يحصون كثرة الجياد والطواشية وغير ذلك من الهدايا إلى الباشا. كما وزع كتخدا الباشا المنح والصدقات على خمسة وعشرين أغا من الأغوات أصحاب المراتب ورئيس من يسوسون الخيل ورئيس العكامين.

وجملة القول أن كلا من خدام الباشا ممن لهم لقب «باشى» أى الرئيس قدم المصريون إلى كل واحد منهم التحف والهدايا.

وكان جملة ما قدم إلى الباشا من هدايا مائتان من الجياد المطهمة ذات السروج المزدانة بالجواهر ومائتان أخرى سروجها عادية.

كما نال كل من الخمسة وعشرين من أصحاب المراتب جوادا هدية.

وعندما وصل أمراء الإسطبل العادلية قادمين من الصالحية كان الباشا والكتخدا مشغولين بتلقى الهدايا والنفائس.

وإذا ما تعرضت بالوصف للعادلية كما رأيتها لأصبح كتابى ككتاب ابن جرير الطبرى. وكانت جميع الضيافات والولائم فى العادلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال من صلب مال الباشا، وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم. وتكلفت الولائم أربعين كيسا واشترى رئيس العطارين عنبرا بخمسة آلاف باره وعودا بألفى باره وحاسبه الدفتردار على ثمن ذلك. وهذا فى الواقع إسراف فى الإنفاق على الولائم. وكانت كل الأطعمة عبارة عن حلوى وطيلة الثلاثة أيام من أولها إلى آخرها، ولم يشرب أحد ماء وإنما كان يشرب أنواعا من الشراب.

وكم كان ينفق أهل القاهرة فى تلك الأيام على مجالسهم الخاصة وكأن كل منهم ورث سبعة من الأثرياء. وبعض الأعيان من أنفقوا ألف ألف قرش على الألعاب النارية. ومنهم من كان يطلق كل قذيفة بأربعين قرشا.

ومن عجب أن كواكب القاهرة منسوبة إلى كوكب الزهرة والناس يتعللون بذلك طلبا للبهجة والسرور. وأهل القاهرة منعمون ولله الحمد، وأقلهم راتبه يتراوح بين خمس إلى ست يارات، وحتى للنساء منهم لهن رواتب ومعاشات. إن وفرة المال هى السبب فى سفاهة الرجال، ففى المثل التركمانى: (إذا ما زاد السمن لدى العربى فإنه يبحث عن وسيلة يضيع بها هذا السمن).

ويحرص المصريون على إلحاق لفظ الغنى والمغنى بأسمائهم.

ذكر دخول وزراء مصر إلى القاهرة قادمين من العادلية لأول مرة

وفى منتصف الثلاثة أيام خلع المصريون وجميع أغوات الباشا خيامهم وعادوا إلى القاهرة بخيامهم وأمتعتهم وأرسل إلى الشهر حواله إلى أغوات المراحل، وتخفف كل شخص من ثيابه الثقيلة ولبس ثيابا خفيفة لطيفة نظيفة، وبقى فى كل بيت من بيوت الأغوات خادم ومضوا إلى موكب الباشا فى العادلية.

وفى صباح اليوم التالى أدى الباشا صلاة الفجر مع أغا الانكشارية وأغا العزب وأغوات الأوجاقات السبعة، ثم تناولوا طعام الفطور، وجهزت صفوف الموكب على الفور، وأصبح الجند على أهبة الاستعداد للتحرك ودعو بالخير لعزيز مصر.

وعندما ركب الباشا جواده هتف جميع الجاويشية بحياته قائلين: أطال الله عمر سلطاننا وأيده وأدام دولته. وأخذوا يصفقون. وفى ساعة السعد بإذن من رئيس المنجمين سيقت الجياد ومر الباشا بجواده من أمام قبر طومانباى فى العادلية وقرأ الفاتحة ترحما عليه، ثم عاد إلى صفوف المواكب وعندئذ عزفت الموسيقى العسكرية وتردد أصداء عزفها فى كل الجهات وبدأ الموكب فى التحرك، ومضى الجاويشية فى ثياب مزركشة على جيادهم وقد تحلت أيديهم من فضة وتحلت رؤوس جيادهم بالريش قارعين طبولهم

واصطفت صفوف الموكب ودخل شاويشية الموكب بين العسكر ونادوا فيهم بالمحازاة يمينا ويسارا، وتحرك موكبهم، وكان الصوباشى قد تقدم الصفوف لتمهيد الطريق لسير الموكب مع سبعمائة من رجاله. مضت فرقة قوامها مائتان من جند الباشا التتار مدججين بالسلاح حاملين الأعلام، وبعدهم موكب رئيس الدلاة ومعه ثلاثمائة ممن لبسوا جلد النمر وعلى رؤوسهم القلانس وتيجان فرو السمور حاملين الأعلام، وفى أثرهم موكب أغا الكوكليان أى المطوعة وهم كذلك فى بزة الدلاة مروا حاملين الأعلام إلا أنهم أكثر زينة من الدلاة، بعد ذلك موكب الـ «دش كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام وهؤلاء كذلك مروا رافعين الأعلام إلا أنهم مضوا حاملين أسلحتهم، ثم موكب موسيقى الخيمة ومر هؤلاء وعلى رؤوسهم بيض العمائم رافعين بيض الأعلام.

ثم موكب غلمان صراجى القصر وكانوا كذلك مدججين بالسلاح راكبين جيادهم المهمة وفى أيديهم الأعلام المرفوعة.

بعد ذلك مضى موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا، مضوا وعلى رؤوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام. إنهم أغوات كُمَّل.

ومن بعدهم موكب رؤساء البوابين وهم يرتدون قباء فرو السمور وفى أثرهم عشرون أو أكثر حاملين الحراب ورءوس النمور، ولأنهم أصحاب امتيازات فقد تقدموا الصفوف، وبذلك انتهى موكب أغوات الباشا بهم وبدأ موكب جند مصر فى التحرك يتقدمهم موكب الجاويشية وعليهم قباء السمور الفاخر وعلى رؤوسهم المجوزات راكبين الجياد، ولم يمر صغارهم خلفهم، إذ إن قانون السلطان سليم يقضى بأن يكون خدام هؤلاء من القواسين.

ومن بعد موكب السباهية ولهؤلاء أعلام خضر وسراويل حمر وطوال الرماح وخلفهم مضى صغارهم مثنى مثنى متحازين وفى يدهم الحراب. كما مر مائة من چورباجيتهم مثنى مثنى ولكن لم يكن فى يد هؤلاء عصى وتقدمهم القواسون حاملين

العلم (الكاوياني)، وهؤلاء الجورباجيه معروفون بأنهم يتبعون أغوات السباهية وخلف كل واحد منهم مضى عشرة أو عشرون غلاما مدججين بالسلاح ثم تبعهم مائتان من جاويشيتهم يلبسون العمامة المعروفة بالمجوزة وفى أيديهم عمدهم وخلفهم لم يمر صغار لأن هؤلاء فرقة شاويشية السباهية وبعد هؤلاء مر اثنان من وكلاء السباهية وخدامهم ومر هؤلاء وهم مدججين بالسلاح، حاملين عصيهم، ثم مر كتابهم مع صغارهم.

ثم مضى أغا السباهية وأمامه اثنان من حملة السيوف ويحيط به أربعون أو أكثر من مشاة القواسين، وخلفه أربعون أو أكثر مدججون بالسلاح حاملين خضر الأعلام والحراب الطوال ويرتدون أبهى ثيابهم ويقرعون طبولهم السلطانية ومثلهم مضى موكب سباهية حملة البنادق، ثم جند السباهية، ومعهم الكتخدا وكتابهم وأغواتهم قارعين الطبول، إلا أن الفرق بينهم وبين فرقة السباهية هو أن لون أعلامهم أصفر.

ومن بعد هؤلاء مضى موكب سباهية المطوعة وهؤلاء كذلك مثل السالف ذكرهم مروا متحازين مدججين بالسلاح لابسين حمر السراويل وفى معيتهم جاويشتهم ووكلاؤهم وكتابهم وأغواتهم قارعين طبولهم، وهؤلاء جميعا حملوا حمر الأعلام وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من فرق الجند الأخرى.

ومن بعدهم موكب بكوات الشراكسة ومر هؤلاء مدججين بالسلاح على جياد سروجها محلاة بالجواهر على رءوسهم العمامة المعروفة بالبريشانى وخلف كل واحد منهم أربعون أو أكثر من غلمانهم الصغار فى ثياب من مخمل حاملين عصيهم. إلا أنهم بلا أعلام ولا طبول.

ثم موكب بكوات مصر وهؤلاء جميعًا مضوا لابسين قباء من فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانى يتقدمهم أربعة من شطارهم عليهم بيض العمائم وحريرى الخلع وفى أيديهم الطبر، وبجانب البكوات ما يقرب من أربعين من قواسيهم وخلفهم ما يقرب من مائة وخمسين من أغوات القصر فى ثيابهم المزركشة، وكل منهم مدجج بالسلاح وهؤلاء لا أعلام لهم ولا طبول.

ثم موكب رؤساء البوابين من ذوى الرتب وهؤلاء لطول مدة خدمتهم للباشا أصبحوا خاصته وندماءه ولذا وعدوا بدرجة أغا ومروا متحازين عليهم قباء فرو السمور وعلى رءوسهم العمائم البريشانية مثنى مثنى يتقدمهم رئيس البوابين وجنابهم وأغوات القصر وهؤلاء مروا عشرة عشرة أو عشرين عشرين وفى معيتهم الصراجون والخدام. إنهم سبعة وعشرون من رؤساء البوابين ومناصبهم أعلاها منصب «سردار» (أى أمير الجيش) يرقى إلى مسلم ثم إلى شهر حواله، و «صاغ وزير كتخدا» (أى الوكيل الأول للوزير، و«صول وزير كتخدا» (أى الوكيل الثانى للوزير) وله رتبة الشهر حواله، «أغا الرسالة» و «أمين المخازن» و «أمين بيت المال» و «أمين الشعير» و«الحاصل خرج» و«وكيل الخرج»، و«أغا السويس»، و«أغا دمياط» و«كاتب الحواله» و «أغا رشيد» و«أغا الإسكندرية» و«أغا المنزلة» و«بك الإسطبل و أمين جمرك بولاق» و«أمين دار الضرب» و«ناظرها» و«المقابلة جى» و«الروزنامجى الصغير» و «أمين الدفتر» و«جاويش السلام» و«كبير رؤساء البوابين» و«أغا بنى سويف» و«أغا المنيا» و«أغا منفلوط» و«أغا جرجا» و«رئيس طائفة البوابين» و«كتخدا البوابين».

وهؤلاء الأغوات السبعة وعشرون لبسوا العمائم البريشانية وخلع السمور ومروا مثنى مثنى، أعقبهم من مروا رافعين الطوغات والأعلام لابسين ثيابهم المزركشة ثم مرت تسع جنائب عليها سروج مرصعة بالجواهر ولها سلاسل من ذهب.

إنها جنائب يساوى كل منها خراج بلاد الروم ومرت بين الحين والآخر جنائب مثلها عليها من لبسوا العمائم المجوزة والسراويل الحمر وفى أقدامهم الخفاف الشركسية ثم مر أغا بكوات الإسطبل مع رئيس طائفة البوابين وعليهما العمامة البريشانى ومر الإثنان سيرًا على الأقدام ومر كتخدا البوابين وأغا السلام على جواديهما أما أتباعهما فمروا مشاة وعلى رءوسهم العمائم البريشانية.

ومن بعد مر موكب جند عزب مصر حاملين الأعلام الحمراء المنسوجة بالذهب يتقدمهم أطفالهم ثم كبارهم ثم فتيانهم ثم رؤساء مشاتهم وخدامهم وهم جميعًا غزاة مدججون بالسلاح لبسوا جلد النمر وحملوا تروسًا من ذهب وعلى رءوسهم ريش الصقور وكانوا يحملون بنادقًا كأنها المدافع.

وعلى بعد مائة قدم يتقدمهم من يصعد الدعاء المحمدى وردد جميع غزاة المسلمين «الله الله» تردد أصداؤها فى جميع أرجاء القاهرة. ومروا على هذا النحو ولكن بلا طبول ومر جاويشيتهم رافعين الأعلام.

ثم موكب الانكشارية يتقدمهم صغارهم وأطفالهم بوجناتهم الوردية ماشين وقد ازدهرت أرواحهم وابتسمت وجوههم، ثم مرت فصائل الدّلاة و من بعدهم رؤساؤهم المسنون وعلى رءوسهم القلانس كلها من الصوف المخيط بالذهب، ثم مر مسنوهم وعليهم جلود النمر وعلى رءوسهم ريش الرخم.

ومن بعدهم مر متقاعدو الأوده باشية مدججين بالسلاح وعلى أكتافهم التروس المذهبة، مروا حاملين بنادقهم الثقيلة ومن بعدهم مر مسنوهم أفواجا أفواجا رويدًا رويدًا يتوسطهم جاويشية الموكب والبوابون و السقاءون يرتدون سود السراويل.

وعلى بعد مائة قدم أمامهم صَعَّد داعى الدعاء الصيحات الإسلامية وردد الجند من أعماق قلوبهم الله الله هز دويها الأرض والسماء حتى استولى العجب والدهشة على جموع المتفرجين. ومضى الأبطال جميعًا كأنهم الغزلان أو طاووس إرم وهؤلاء هم صفوة جيش المسلمين فكل جند المدفعية والجبه جية وجند مركبات المدفعية وفرقة موسيقى القلعة يمرون جميعًا فى موكب الإنكشارية ومجموعهم ٧٣٣٨ من الجند الأشداء ولكن هؤلاء لهم قوة وشهرة عشرين ألف جندى.

وهؤلاء كذلك مروا بلا طبول مشاة رافعين أعلامهم الكبيرة وانتهى بذلك موكبهم أما إذا مضى مائتان أو ثلاثمائة مع قائد إلى الحرب فإنهم يقرعون الطبول.

مر كذلك جند مشاة الإنكشارية مشاة ثم تحرك موكب أغا الإنكشارية وأغا العزب يتقدمهم چورباجيه العزب على جيادهم يلبسون فرو السمور وأمامهم (جدا لرى) وخلفهم غلمان يلبسون حمر السراويل، وعلى يمنتهم چورباجية الإنكشارية مضوا على جيادهم عليهم قباء فرو السمور والصوف أمامهم (جدالرى) وعبر جاويشيتهم القدامى ورؤسائهم، وعلى يسرتهم العزب وعلى يمنتهم الإنكشارية، مروا متحازين ورئيس الجاويشية بجانب الباشا وقد لزم موظفو بيت المال إدارتهم، ومر فقط كتخدا العزب

وكتخدا الإنكشارية متحازبين وكذلك أغا الإنكشارية، وأغا العزب تلاهما صغار مدججين بالسلاح، ثم تحرك ملازمو الإنكشارية وهم أربعمائة على رءوسهم القلانس المزركشة ذات الريش معلقين السيوف فى وسطهم، ومضوا مشاة بلا بنادق، ومن بعدهم شطار الباشا وهم فى ثياب مزركشة وفى يدهم الطبر وعلى رءوسهم خوذات مذهبة مروا على جانبى الباشا حاملين الطوغات، وعلى رأس رئيس الشطار عمامة بريشانية ذات ريش ملكى، وقام رئيس الشطار هذا بتوزيع ما فى جيوبه من عملات ذهبية وفضية صدقة على الفقراء، ورئيس سقائى ركب الباشا على يمنته بسروالة الأحمر وقلنسوته المزركشة وحملة البنادق كذلك لابسين حمر السراويل والقلانس حاملين ذيل ثوب الباشا الذى ركب جواده مزين السرج بالجواهر، وقد لف حول وسطه جعبة محلاة بالجواهر ولبس سروالاً من المخمل وفى قدمه الخف الشركسى وعلى رأسه العمامة السليمية التى علق عليها ريشتين سلطانيتين، وعلى يمنته ثمانية من الجلادين وعلى يسرته سار الصوباشى والمحتسب أغا وهما فى أبهى مظاهر العظمة والأبهة وعندئذ لوح الباشا بالسلام على يمنته ويسرته ووزع عطاياه على الفقراء والناس قاطبة الغنى منهم والشحاذ، الشاب منهم والشيخ رفعوا أصواتهم بالدعاء له قائلين:

«حفظك الله يا والى مصر»، «حفظك الله يا عزيز مصر»، «حفظك الله يا متولى مصر»، وفى أثر الباشا مضى خدمه فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم السيوف المرصعة بالجواهر وعلى رءوسهم القلانس الحمراء المزركشة.

وخلف الباشا كتخدا الباشا وافندى الديوان وهما فى قبائين من فرو السمور وعلى رأسهما العمامة البريشانية، ويتلوهم اثنان وعشرون من خدام الباشا من أصحاب المراتب وغيرهم، وهم جميعًا على الجياد لابسين الطيلسان المحمدى ومر جاويشية القصر وسط أغوات القصر مصطفين حسب درجاتهم ثم مر رئيس موسيقى القصر مع أربعين من رجال فرقته، ثم مر الخزينة دار ورئيس مؤذنى القصر جنبًا إلى جنب، ثم مر العلم واللواء وفرقة الموسيقى العسكرية يدقون الطبول كأنها الرعود، ومن بعدهم مضى صراجو أغوات القصر ثم رئيس السقائين مع أكثر من سبعين من رجاله على جيادهم

المزينة بالورود رافعين خضر الأعلام، ثم مر حملة المشاعل بمشاعلهم المزينة بشتى الألوان يتراقصون ويصفقون صائحين: «الله ينصر السلطان»، وعندما دخل الباشا القاهرة على هذا النحو اصطف لاستقباله فى ميدان الروملى جميع السباهية وفرق حملة البنادق والمطوعة والشراكسة ومشاة المتفرقة وهنأوه بسلامة الوصول فحياهم وانصرف جميع الفرسان إلى ديارهم وعندما خَطَا الباشا من باب العزب قائلاً: بسم الله، نحر العزب مائة من الكباش وأراقوا دماءها تحت حوافر جواد الباشا وبسطوا أكفهم بالدعاء له بكل خير، وسار العزب والإنكشارية بجانب جواد الباشا حتى دخل قصره وسط مظاهر الجلال والعظمة وعندئذ ذبحوا مائتين من الخراف وتعالت أصواتهم بالدعاء للباشا وقرأ الباشا الفاتحة وعندما ترجل عن جواده صفق جميع الجاويشية والموضع الذى نزل فيه الباشا عن جواده هو الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم فاتح مصر فجلس الباشا فيه قليلاً تبركا وتيمنًا.

ثم صعد الباشا سلما حجريًا من خمس وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى ناطقا باسم الله وعلى يمنته الكتخدا وعلى يسرته كتخدا الجاويشية والجاويشية يدعون الله للباشا قائلين: «بارك الله ثبت الله قدمكم وأدام دولتكم»، وفى التو أشار رئيس جاويشية الإنكشارية بمنديله إلى القلعة فأطلقت المدفعية أكثر من أربعين طلقة من برج الطوبخانه وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة صغيرة.

ونادى كتخدا الجاويشية قائلاً: «هل من صاحب مظلمة أو مصلحة»، وعندئذ لزم الصمت كل من فى الديوان ثم تقدم نحوه ستة من مكة والمدينة يتقدمهم من يطلق عليه مصطلح «صاحب المصلحة» وقال: «مرحبًا بمقدمك يا وكيل السلطان خادم الحرمين الشريفين». وسلمه تقريرًا يتعلق ـ ولابد ـ بشئون مكة والمدينة فتسلمه الباشا قائلاً: بسم الله، وخط بالقلم مستصوبًا وأصدر أوامره وتوصياته فى تلك المسألة بوصفه وزير مصر ووكيل السلطان العثمانى خادم الحرمين الشريفين، لذا أنشأ فى ديوان مصر إدارة مهمتها النظر فى أمور الحرمين الشريفين وكان ذلك أول أمر بت الباشا فيه فى ديوان مصر. ثم دعا داعى الديوان وتليت الفاتحة، ثم قبل الأعيان والأشراف جميعا يد الباشا وجددوا له

البيعة وعندئذ عزفت فرقة موسيقى القلعة فى ميدان القصر إحدى المقطوعات الموسيقية ونالوا من الباشا منحة قدرها ألف پاره وانصرفوا. وقبل جميع أرباب الديوان يد الباشا طيلة ساعة.

وبعد ذلك قرأ داعى الديوان الفاتحة وأخذ كَتْخُدَا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة بيد الباشا ليرفعاه من جلسته على سجادة قايتباى. ثم صافح الباشا جميع أرباب الديوان وصفق جميع الجاويشية وسلموا على الباشا، ثم دخل الباشا حجرته وتفرق جميع الحضور.

وفى تلك الساعة بالذات تلا أربعون من القراء سورة «الأنعام» فى قاعة ديوان الغورى وقد جرت عادتهم على قراءتها كل صباح هناك. وبعد أن مضى الباشا إلى الحجرة التى جلس فيها على كرسيه وتخفف من بعض ملابسه لكى ينعم بالراحة قدم على الفور جاويشية الفرق السبع وطالبوا الباشا بمنحهم.

ولقد أعطى جان بولاد زاده حسين باشا كيسين إلى فرقة الإنكشارية، كما أعطى كيسا إلى كل فرقة من الفرق السبع وبذلك يكون إجمالى ما دفعه لهم تسعة أكياس.

وما ذكرنا من أوصاف موكب استقبال الباشا كان خاصًا باستقبال جان بولاد زاده حسين باشا. لأن من ولى بعده من الوزراء أكثروا من اتخاذ الحجاب.

واستراح الباشا فى تلك الليلة. وبمقتضى قانون السلطان سليم كان لابد من تقديم ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأرباب الديوان صباحًا مرتين فى الأسبوع. وإذا لم يقم الباشا هذه الولائم وأضاف نفقاتها إلى الخزانة أو إلى ماله الخاص فإنه يطالب بها عند خلعه. ويطلبون من الباشا اثنين وتسعين كيسا فى السنة بواقع كيسين لكل وليمة.

وبعد الفراغ من تناول الثلاثة آلاف صحن من الطعام وبعد إحقاق الحق فى عدة دعاوى دفعت مرتبات الفرق المختلفة فى مجلس الباشا وعلم المستحق من غير المستحق، والديوان فى ذلك اليوم على هذا الحال، وقدم أعيان القاهرة زرافات زرافات للتبريك ودام الحال على هذا ثلاثة أيام والناس يأتون لزف التهانى للباشا كأنهم البحر.

أما ما كانوا يقدمونه من هدايا إلى الباشا فلا يعلم عددها إلا الله، وإذا ما رغب الباشا عن هذه الهدايا فهذا منه تصرف غاية فى الحكمة والسداد، لأنه إذا ما قبلها لقاء أداء مصلحة ما ولم يؤد هذه المصلحة طالبوه برد تلك الهدايا عند عزله وجملة القول أننا تحدثنا عن الموكب الخامس لمصر بناء علية تلك المراسم.

رسالة تحذير لوزراء مصر بشأن التشريفات

وبعد الموكب سالف الذكر إذا ما أخطأ الباشا التصرف وخلع على أهل المناصب خلعًا أكثر من التى أرسلت من قبل السلطان فإن هذه الخلع الزائدة تكون من صلب مال الباشا وهذه نفقات باهظة تكون وبالا على الباشا حين عزله. وينبغى عليه التحرز من ذلك تمام الاحتراز.

فعندما أصبح كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قسم هذه الخلع ثلاثة أقسام متنوعة الأعلى والأوسط والأدنى. والخلعة من القسم الأعلى كانت تساوى ألفى بادة والخلعة من القسم الثانى تساوى ألف بارة، أما القسم الأدنى فخلعته تساوى خمسمائة بارة، وجعل يهوديًا رئيسًا لصانعى الخلع فصنع له ستة آلاف خلعة فى العام وبمجرد أن قدم الباشا إلى مصر جدد البيعة لجميع أصحاب المناصب والكشاف والأمناء فبلغ عدد الخلع التى وزعها عليهم من قدوم الموكب من الصالحية إلى العادلية إلى القصر ١٠٤٥ خلعة، منها خلع من مال السلطان وأخرى من صلب مال الباشا وكان من اللازم التحكم فى ذلك وبقدر ما منح من خلع أقر فى المناصب، وفى خلال سبعة أيام وسبع ليال كان الباشا قد أنفق ألف ومائتى كيس (قبل الشروع فى المعركة).

وصية إبراهيم باشا لوزراء مصر

ويقول إبراهيم باشا:

الباشا الحكيم ينبغى عليه أن يقيم وليمة لجميع أعيان البلاد وبعد الفراغ من الطعام يشاورهم فى الأمر ويسأل عما إذا كان فى ذمة الباشا الأسبق من مال ويعرف ذلك. وإذا ما ثبت له ذلك استدعى إلى الديوان كل من كتخدا الباشا المخلوع والشهر حواله وافندى الديوان ومسئول بيت المال ووكيل مصروفات الباشا وكل أولى الأمر وسألهم

عما تبقى فى ذمة الباشا السابق، بقدر السنوات التى قضاها فى الحكم، من أموال القرى المحلولة والخزانة طِبق سجلات الروزنامة ويسأل كل ما يطير فى السماء ويدب على الأرض ويسبح فى البحر.

ولكى لا ( )[1] الباشا يمضى إلى الباشا المخلوع وفى معيته مسنو الجاويشية وقد ساء أدبهم واستبدوا برأيهم وثارت ثائرتهم، ومسنو جميع الفرق العسكرية، وكتخدا الجاويشية، وكل وكلاء الفرق العسكرية، ويدخلون على الباشا المخلوع دون مراعاة ما كان له من حقوق عليهم سابقًا، ويسلمونه دفتر الروزنامة قائلين: تبقى عندك قدر مائة كيس من مال السلطان. فإذا ما قال الباشا المخلوع: سوف ألتقى بأخى الباشا غدًا وإذا ما كنت مدينًا أديت ما على من دين. أمهلوه.

أما إذا أنكر واستكبر فينبغى عليهم أن يحبسونه فى قصره أسفل المدينة أو قصر يوسف يحاصره چورباجى من كل فرقة فى عدد من رجاله وينبغى ألا يتعرض له أحد بأى أذى لأنه حدث ذات مرة أن جزءا من قصر «قوجه مصطفى باشا» انهدم نتيجة هجمات الجند فالتمس مصطفى باشا عطف السلطان فقرر إبقاءه فى مصر ثانية، ودخل القاهرة فى أربعين يومًا فأعمل السيف فى عدة آلاف من جند مصر حتى إنهم لقبوه بقاتل الجند ولهذا السبب يحبسون الباشا ويحرصون على سلامته.

أما إذا رق له الباشا الجديد وقال: إن هذا المال فى ذمتى فإن ذلك يقيد فى السجل المحمدى فى حضور قاضى العسكر وشيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة وكبار الأعيان والأشراف، ويحصل الباشا ما تبقى وعندما يخلع الباشا يحاسبونه على ذلك.

أما إذا قال الباشا إنى لا أتحمل ما على الباشا المخلوع أى إذا قال إنه لا يستطيع أن يسدد دينه. يعرض الباشا أمره على الأستانة قائلاً: إن فى ذمة فلان باشا الوزير الأسبق عليه دين (بقايا) للخزانة السلطانية وهذا ما يسبب عجزًا فى الخزانة. والأمر لمولاى السلطان.

وعلى هذا النحو يبعث بتقريره إلى الإستانة. وفى خلال أربعين يومًا أو أكثر يصل الأمر السلطانى مع أحد رؤساء البوابين أو أحد القواد وفيه: «أنت وزير مصر وعليك تحصيل ما فى ذمة الباشا المخلوع من مال السلطان».

(١) بياض فى الأصل.

وإذا ما صدر الفرمان السلطانى بذلك، حُبس الباشا المخلوع وكبار أغواته فى برج يوسف وباعوا كل أمواله وممتلكاته فى المزاد، فيخلو وفاض الباشا وأتباعه ويدوم حبسهم ثمانية أو تسعة أشهر وقد يمتد سجنهم إلى عام ويصبح الباشا فى حاجة إلى الدوانق[1]، ويطلق سراحه بعد سداد ديونه وينقل إلى قصر أو يبقى فى ذلك القصر تحرسه فرقة من الجند.

يأتى بعد ذلك المدعون وأصحاب المظالم والشكاوى من كل صوب يطلبون ما أخذه الباشا المخلوع من رشوة دون مراعاة لمصالح المسلمين وانحرافا عن جادة الشرع الشريف.

فأما أن يعينه وزير مصر ويصونه قاضى العسكر ويدفعان لكل واحد من المدعين جزءًا من الشىء لإصلاح ذات بينهم. أو أن يحرص الباشا والقاضى عسكر والفرق السبع المدعين فتسوء حالة الباشا المخلوع وأغواته إلى أبعد حد فيطوفون بهم من مكان إلى مكان للتشهير بهم.

- خلاصة القول:

إذا كان الباشا عاقلاً ومدبرًا ـ حاسب المصريين قبل أن يحين عزله بخمسة أو ستة أشهر وألا يعتمد عليهم فى حساب ما عليه من ديون بل يراجعها مع الأستانة وعند خلعه يصدر فرمان سلطانى مع المسلم أو كتخدا الباب يجىء فيه: «أنت يا فلان وزيرى على مصر إذا ما وصلك فرمانى هذا عليك أن ترسل إلى الأستانة الوزير فلان معززًا مكرمًا» وعندما يصدر فرمان على هذا النحو فإنه ـ والعظمة لله ـ لا يفارقون الباشا المخلوع لشهر أو أكثر حبًا فيه ومجاملة له إذ إنه فى طريقه إلى الباب العالى ومن المؤكد أنه سيصبح صدرًا أعظم. ولا يجترئ وزير مصر ولا القاضى عسكر ولا جند مصر على الفصل فى ديونه ولا يستطيع أحد القول بأن حبة واحدة بقيت فى ذمة الباشا المخلوع وفى خلال أشهر أو أكثر عندما يهيئ الباشا أمتعته يأتيه مائتان أو ثلاثمائة بغل أو جمل وما يقرب من ألف من الجياد والطواشية ومال لا يحصى كثرة حتى إن الهدايا التى تأتى

(١) الدوانق: وحدة النقد العباسية ومفردها دونق.

الباشا عند عزله تكون بقدر الهدايا التى تقدم إليه حين توليه على مصر فقد تسلم إبراهيم باشا ألف كيس حين عزله، وبينما كان فى طريقه معززًا مكرمًا إلى الأستانة أُسندت إليه ولاية الشام.

الموكب السابع لمصر حينما يعزل الباشا ويخرج مكرمًا

وهذا الموكب مثل موكب دخوله القاهرة بل إنه من الوزراء من تزاد له المواكب.

أما ـ والعياذ بالله ـ إذا ما عزل الباشا عن مصر منكوبًا ولم يظهر له صديق فى الأستانة خرج إلى العادلية بلا تعظيم وبلا تكريم مع أتباعه ويمضى إلى الأستانة محزونًا كاسف البال.

وينبغى للعقلاء من وزراء مصر أن يأخذوا العبرة من هؤلاء فعندما يتولى أمور مصر يتوخى الحكمة وسداد الرأى ويلزم جانب الحيطة. وعليه أن يطلع على كافة أحوال من سجنوا من الأمناء والملتزمين والكشاف المفلسين ويسعى فى إطلاق سراح كل منهم وعليه أن يفتش عن الأموال المطلوبة ممن سجنوا لدى الفرق السبع ويطالب بذلك المال.

وهذا ألزم ما يلزم الباشا العاقل فى البداية حتى إذا سألنا عنه حين عزله لا نُفَاجَأ بأنه فى السجن! يقولون له: كان ينبغى لك التحرز وقت توليك الحكم، ما الذى منعك عن عدم الاحتياط؟

- ومن ألزم لوازم الباشا كذلك أن يسأل من تبقت غلال فى ذمته وأن يساعد المظلومين والمقهورين على استرداد حقوقهم من ظالميهم ويرشق أكباد الظالمين بالسهام ويقتص منهم، ويتجاوز عن جرائم بعضهم ويعفو عنهم امتثالا لقوله ﷺ: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا»، ويتصدق على كثير منهم ويعمل السيف فى بعضهم الآخر وهذا من ألزم لوازمه وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم.

- وعلى الباشا ألا يقبل رشوة من أحد لأنها تسترد منه عند عزله، وعليه ألا يثق بقول أهل الزيغ والفساد ويتصرف كيفما شاء دون أن يحيد عن صلاحه فينعم براحة البال.

- وعليه كذلك أن يقوم كل شهر بمحاسبة الروزنامه جى وكل أهل الديوان وأن يسجل كل ما يحصلونه. والسلام.

- وعلى الباشا أن يتخذ روزنامجى من أهل الاستقامة والصلاح والثقة، إذ إنه عند خلع الباشا يصبح فى إمكان الروزنامجى أن يعمل كافة حيله الشيطانية ـ فلقد جاد إبراهيم باشا على من يدعى عبد الرحمن أفندى الروزنامجى بمائتى كيس وعند عزل الباشا حسب عليه ستمائة كيس، وفى الوقت الذى تبقى فيه لإبراهيم باشا سبعمائة كيس لدى عبد الرحمن الروزنامجى بإيعاز من الأخير ادَّعُوا أنَّ فى ذمة إبراهيم باشا ستمائة كيس. بيد أن جان بولاد زاده حسين باشا اتهم الروزنامجى بالخيانة، وقتله خفية بعد الطعام؛ فحمد الله جميع أعضاء الديوان وكان جميع الأمناء والكشاف من ظلمه شاكين باكين.

- وهكذا فمن الحتم أن يكون الروزنامجى من أهل التقوى والصلاح.

وصية أوليا لوزراء مصر

اللهم عافنا فقد انخدع باشوات مصر بمظاهر العظمة فى مواكبهم التى أسلفنا وصفها، فدخلهم الغرور، إذ إن من نهل من ماء النيل حكم حكم الجبابرة المستكبرين فمصر هى أرض الفراعنة.

ولكن على الباشا أن يألف الناس ويعاملهم باللين والرفق، وعليه الالتزام بحدود الشرع الشريف. وعليه أن يسند أمر الخزانة السلطانية إلى كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والدفتردار، وأن يلح فى كل ساعة على تحصيلها.

وعليه ألا يبيع القرى المحلولة بل يجب عليه أن يسجلها لأن الأوامر ترد إليه من الأستانة مع بعض أغوات الباب العالى يطلبون «الترقيات». ويلزم منح «الترقيات» إلى من يخرج إلى الحج ومن يذهب إلى خزينة اسطنبول ومن يأتون من مكة والمدينة والذاهبين إلى القتال وكثير من أمثالهم.

وينبغى حصر القرى المحلولة بحيث يدفع سبعة آلاف أقجه كـ «ترقيات» حسب ما جاء فى قانون السلطان سليم. وهذا كله يطالب به الباشا. ومعظم وزراء مصر لهذا السبب لا

يمنحون الكشوفيات إلى الكشاف المفلسين من مخزن يوسف وإدارة الروزنامجى وهذا سبب اتهامهم ومذمتهم. وعند خلع الباشا يطالب بسداد مال السلطان و «الترقيات». وعلى وزراء مصر أن يرفعوا أيديهم عن أوقاف الله، وألا يتعرضوا لها وألا يأخذوا من هذه الأوقاف مالا. وكل ما عليهم هو الإشراف عليها وتعميرها لتحسن العواقب.

وعليهم كذلك ألا يثقوا فى كلمة مفسد وألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وألا يكونوا عونًا للمجرمين من طائفة جند «القاسمية وذى الفقارية» ومن والاهم وعليه محاسبة الإدارات الاثنتى عشرة فى كل عام ويُحكم الرقابة عليهم.

وجملة القول أنه يجب على السلطان ألا يحاسب وزيره على الوسيلة وإنما على الغاية والنتيجة، ففى المثل التركى: «إذا كنت سوف تعطى فأعط الحاشية لتعطى البك ليعطى الباشا».

وعملاً بهذا المثل فأعط السلطان تسعة ولا تعطيه عشرة من خلال أتباع الوزير.

ولا تأت إلى مصر فى جند كثير ويكفيك أن تأتى فى ثلاثين أغا وثلاثمائة حارس وإذا عقدت العزم أن تحكم مصر بالحديد والنار وأحضرت عشرة آلاف جندى فإن ذلك قطرة فى محيط، وذرة فى شمس. وإذا جئت بعشرين ألف جندى فلا تسكنهم فى المدينة فلا طاقة لولايتك بتحملهم لأن جميع قراها من مال الحكومة.

وجند مصر جميعًا فى خدمتك ورهن إشارتك فاستخدمهم بسهولة، وعامل الجميع بيسر واعتدال، وإذا كنت من أهل التقوى والاعتدال وعاملت الناس بالحسنى، فسوف يتحصل لك فى العام ألفا كيس وإذا ما زاد عدد القرى المحلولة يتحصل لك ثلاثة آلاف كيس وتأتيك هدايا سنوية تقدر بألف كيس. ولكن شريطة أن تبسط جناح رعايتك على أصحاب الشأن ورجال السيف وأهل الكرم والصادقين وأهل الوقار وتجزل لهم الصدقات، وإلا امتلأت مصر بمن يتسلطون على العباد ويستبدون بهم. وينبغى عليك أن تعقد أواصر الألفة بينك وبين الأمراء وأغوات الأستانة ممن قضوا فترة طويلة فى خدمة أكثر من سلطان وتولوا أكثر من وزارة. وثمة بيت فريد يقول:

لو لم يكن الناس عالم بقلبه ∴ ينبغى عليه أن يعيش بقدر المستطاع

وهؤلاء ممن تولوا المناصب ورغد عيشهم، أما حينما عزلوا لعنوا وحقروا وساءت أحوالهم.

الموكب الثامن وهو موكب وصول مقرر وزير مصر

عندما يصل هذا المقرر إلى مدينة بلبيس فإنهم يرسلون الخبر حتى يتجهز الجميع للموكب. وفى ذلك اليوم يُخطِر كتخدا الباشا جاويشية الموكب ليكونوا على أهبة الاستعداد، ويرسل وكيل مصروفات الباشا مطبخه إلى العادلية لتهيئة الولائم. وفى ذلك اليوم وفى تلك الليلة يكثر الهَرْج والمَرْج ويستأجر جميع أهل القاهرة الدكاكين حتى باب الناصر لمشاهدة الموكب. وفى صباح اليوم التالى يستأذن الكتخدا من الباشا للمضى على الموكب وفى معيته فرقة الموسيقى العسكرية وهى تعزف إحدى المقطوعات الموسيقية.

أما فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا لأنه كان من اللازم إحضار من جاء بالمقرر السلطانى والخلعة الشريفة والسيف وسط مظاهر الأبهة والعظمة، أمر الكتخدا بأن يحمل جميع أفراد فرقة الموسيقى العسكرية وأغوات قصر الباشا كامل أسلحتهم وعندما ذهبنا لم يكن معنا إلا فرقة الموسيقى العسكرية.

وعند مَقْدِمنا بمرسوم التثبيت (المقرر السلطانى) نبه علينا بأن نقرع الطبول، وفى البداية مر موكب التتار، والدلاة، والمطوعة، والقائمون على خدمة موائد الباشا، ثم موكب الصراجين، وموكب مشاة المتفرقة، وموكب رئيس البوابين، وموكب الكتخدا.

ثم خرج كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية جنبًا إلى جنب وفى معيتهم رئيس المتفرقة والشهر حواله أفندى وأفندى الديوان وكتخدا البوابين وقد لبسوا جميعًا الثياب المزركشة ومعهم صغارهم وقد لبسوا كذلك أفخر ثيابهم وطافوا داخل شوارع القاهرة وخرجوا من باب الناصر، ولا وجود فى هذا الموكب لجندى واحد من جند مصر. وانتظر المصريون جميعًا فى الدكاكين الصغيرة فى السوق السلطانية وعندما بلغ الموكب العادلية وقف من جاء بمرسوم تثبيت الباشا ـ بقطع النظر عن كونه بك اسطبل السلطان، أو كتخدا بوابين، أو أغا من أغوات الصدر الأعظم ـ للكتخدا وبعد أن صافحه بسط

السماط وتناول الطعام جميع البكوات والأعيان. وبعد القهوة وإحراق البخور ركبوا جيادهم وتحرك الموكب على النحو الذى أسلفنا ذكره، ومضى كتخدا الباشا والأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا جنبًا إلى جنب، وعندما مر دفتردار الأغا يحمل الخلعة الفاخرة والكتخدا يحمل السيف المرصع والأوامر السلطانية التى فى جيب الأغا والكيس الحريرى والصرة المخيطة بالذهب وبداخلها الفرمان السلطانى، عزفت الموسيقى العسكرية ودخل الموكب من باب الناصر وإذا ما رضى المصريون عن الباشا ازدحمت الأسواق السلطانية بهم لمجيئ فرمان التثبيت، وعندما صعد عدة ( )[1] على هذا النحو إلى قاعة ديوان الغورى بالقصر السلطانى بقلعة القاهرة قارعين الطبول، وصل الباشا إلى رأس السلم لاستقبال الموكب ثم وقف أسفل عرش السلطان سليم، وفى التو خرج الأغا الذى أحضر مرسوم التثبيت مع الصرة وهو يحمله فى يده وأخرج كذلك الفرمان والأمر السلطانى من الصرة المزركشة وقبلها ووضعها على رأسه وسلمها إلى يد الباشا فقبلها هو الآخر ووضعها على رأسه ووضعت الطغراء الشريفة مع البسملة وفض خاتمها. وعند إخراج الفرمان الشريف حفل ديوان الغورى بحشود من الناس قدموا لمتابعة ما يجرى بالديوان. ثم تلى أفندى الديوان الفرمان الشريف فى جرأة وجهارة وفى الأغلب يتضمن خير الدعاء للبرايا والرعايا وأحوال مكة والمدينة والخزانة وقول السلطان: لقد قررت تثبيتك فى هذه المهنة المباركة. فصفق جميع الجاويشية وعمت البهجة والابتسام وجوه جميع أرباب الديوان وفى التو تقدم الأغا الوافد نحو الباشا حاملاً الخلعة الفاخرة فى يده، ثم قبلها وألبسها الباشا وعندما ارتدى الباشا الخلعة صفق كل الجاويشية قائلين: «بارك الله لك فيها»، بعد ذلك علق الأغا الوافد السيف المرصع بالجواهر فى وسط الباشا والأغا تحت إبط الباشا وصعدا به سجادة السلطان الغورى وتليت الأوامر السلطانية بأعلى صوت للمرة الثانية، وبيض الجاويشية والأغوات الأوامر السلطانية ووزعوها لتنفيذ ما جاء فيها. وعندما انفض الديوان أطلقت مدافع القلعة سبعين طلقة وعمت البهجة والفرحة الناس جميعًا، وفى تلك الساعة حضر موسيقيو

(١) بياض فى الأصل.

القلعة وعزفوا إحدى المقطوعات العربية ومنحوا منحة قدرها ألف باره على الفور وانصرفوا.

وفى صباح اليوم التالى بُسط السماط فى الديوان، وحضره جميع أرباب الديوان وأصحاب المناصب العليا وثبتوا فى مناصبهم وطيبت نفوسهم بما خلع عليهم من خلع فاخرة، وانصرف كل إلى داره وعزف رئيس فرقة الموسيقى العسكرية للقصر مقطوعة موسيقية ونال هو ورجاله على الفور منحة قدرها ألف باره وأقمشة.

وبعد ذلك قدم أربعة وعشرون من أصحاب المراتب لزف التهانى إلى الباشا، ونالوا المنح منه، وفى هذا الديوان عزل بعض الأعضاء وأسندت مناصبهم إلى غيرهم، وحصل مال الكشوفية الخاص بالباشا من جميع أصحاب المناصب وحصل عشرة أكياس من كتخدا الجاويشية وعشرة أكياس من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس التراجمة وخمسة من الروزنامجى وستة من أغا الإنكشارية وأربعة أكياس من رؤساء الفرق العسكرية الخمس الأُخرى وخمسة أكياس من كل من الصوباشى والمحتسب أغا نظير تثبيتهم فى مناصبهم وحصل ثلاثمائة وستون كيسًا ممن خلعت عليهم الخلع.

ووزعت عشرون أو ثلاثون كيسًا على أغا الباب العالى الذى جاء بمرسوم التثبيت وأغوات الصدر الأعظم ودفع ما يقرب من عشرة أكياس كذلك على الخيل والطواشية وسائر الهدايا الأخرى.

وأقام كتخدا الباشا وسائر أصحاب المناصب المآدب، وقدموا هداياهم إلى الباشا وأرسلوا بعض الهدايا إلى الأستانة. ونال بذلك الأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا مائة كيس وهكذا ينتهى موكب مرسوم تثبيت الباشا فى منصبه.

الموكب التاسع

موكب إرسال خزانة مصر إلى الأستانة

بمجرد أن يصل مرسوم التثبيت الخاص بالباشا والذى أسلفنا الحديث عنه وتجدد جميع المناصب يوافق ذلك رأس السنة، ولذا يصبح لزاما على الباشا أن يحصل خزانة

مصر ويحظى ذلك باهتمامه ويبحث دفتر دار الباشا وكتخدا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة وكتخدا الباشا والشهر حواله وكل أولى الأمر عما تبقى من أموال فى ذمة الأمناء والكشاف والملتزمين والولاة، ولا تنتهى عند تحصيل مال الثلث الأول والثانى والثالث والمال الصيفى والشتوى، بل يقومون بتحصيل الأموال المتبقية فى ذمة الأمناء العاجزين عن السداد ويكابدون فى ذلك عناء ومشقة لا مزيد عليها، ويقبض على الكشاف العاجزين عن السداد ويعلقون من أذرعهم فى بكرات فى ديوان الغورى ويصلبون وتجرى الدماء من عظامهم ويطرحون فى السجن.

ويحصلون المال السلطانى ويطلقون عليه اسم « الخزانة الكبرى» ونوضح الآن من أين تحصل هذه الخزانة.

بيان بجميع قرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها والدوانق والأوقيات وثقل مثقال القمح والشعير

فى مصر ٧٦٠ مدينة و ٣٠٠٠ قرية و ٦٠ قلعة، وفيها كذلك ٢٤ محكمة على نحو ما سلف ذكره بالإضافة إلى ٣٦ محكمة فى ولاية الصعيد العالى.

يحصل سنويًا ٢٤ خزانة من جميع قرى الكشوفيات والأوقاف والأمناء والملتزمين وأوقاف السلاطين وأوقاف الحرمين والأعيان وغير ذلك من القرى. وهذا ما ورد فى سجلات «الغزالى» وسوف أتحدث عن كل منها فى حينه بمشيئة الله.

إلا أنه ثمة اثنتى عشرة خزانة خاصة بالمال السلطانى وهذا ما سوف نوضحه.

والخزانة الكبرى هذه تمثل المال السلطانى فى ديوان مصر والأستانة وينبغى أن تصل بأى وجه كان لصرف مرتبات عيد الفطر المبارك وتقدر هذه الخزانة بـ «٢٢٠٠ كيس مصرى» فى كل كيس «٨٤٦ قرشا»، وكل قرش يعادل «٣٠ باره»، وعلى ذلك فإن كل كيس يحتوى على «٢٨٠٠٠ » باره، وكل باره تعادل دانقًا وكل دانق يعادل «١٠ أثقال من الشعير»، والدرهم يعادل «٤ دوانق» ويعادل كذلك «٤٠ ثقلا من الشعير»، والمثقال يعادل «١٠٠ ثقل من الحنطة» بناء على هذا الحساب يزن الكيس المصرى( )[1] أوقية.

(١) بياض فى الأصل.

وفى الديوان يبسطون بسطًا من الجلد المدبوغ ويحصيها ثلاثمائة من الصيارفة ويزنها الوزانون كلها وتلف كيسًا كيسًا ويختمها الدفتر دار أمام الباشا ثم تسلم إلى «الحاصل خرج»[1] فى ديوان الغورى يضعها الحاصل خرج فى صناديق من خشب الصنوبر (الأرز) بواقع ثلاثة أكياس فى كل صندوق ويسمر كل منها على حدة، وهذه الصناديق مبطنة من الداخل ومن الخارج باللباد ويغطونها كذلك بجلد العجل الرطب ويلفونها بحبل متين ثم يغطونها ببسط حمر. وعلى هذا النحو تجهز الخزانة ويحملها أحد البكوات الثراة المعروفين بشدتهم، ويصرف له نفقات سفره من خزانة السلطان ويؤكد عليه بضرورة التأهب لهذه المهمة.

ويتبعه أحد أغوات الإنكشارية ممن فى سبيلهم لنيل درجة كتخدا وقديم ثرى من كل فرقة من الفرق الخمس الأخرى وجاويش وبيرقدار ويصل إجمالى المكلفين بهذه الخزانة إلى اثنين وسبعين شخصًا يطيبون نفسًا بمايخلع عليهم من خلع سلطانية.

وإذا ما كانت غرة شهر رجب يبسط سماط ديوانى عظيم يدعى إليه جميع أرباب الديوان والعلماء والصلحاء والقاضى عسكر ونائب الديوان وشهود وكتاب السجل السلطانى ويحصى كتخدا الباشا الصناديق التى تكومت كالجبال فى الديوان صندوقًا صندوقًا فى حضور الباشا والعلماء وبك الخزانة ويسلمها إلى بك الخزانة وقادة الفرق السبع وعندئذ يوجه الكتخدا كلامه إليه قائلاً: لقد تسلمت منى ألف ومائتى (١٢٠٠) كيس من مال السلطان بالتمام وأخذت منك صكًا بذلك وهو الآن لدى. فليشهد الباشا بذلك.

ويسجل هذا فى السجل الشرعى ويدعو داعى الديوان وتقرأ الفاتحة. ثم ينزلون الصناديق من ديوان الغورى إلى ميدان القصر يحرسها مائتان من رجال الباشا مدججين بالسلاح راكبين البغال المزينة وقد جلجلت جلاجلها ويحمل الإنكشارية والعزب كل بغل صندوقين بهما ستة أكياس.

(١) الحاصل خرج: مُحَصِل الخراج.

ذكر موكب خزانة مصر

وتبدأ المواكب فى المسير تتقدمها مواكب البـاشا بمقتضى القانون ثم جند الفرق السبع المكلفين بإرسال الخـزانة وعددهم سبعمائة، ويمر الموكب بمرأى مـن الباشا وهم رافعين الأعلام يقرع قـادتهم الطبول ومعـهم بك الخزانة وعلـيه قباء فرو السمـور وعلى رأسه العمامة البريشانى ومن ورائه رجاله فى كامـل زينتهم وسط عزف الموسيقى وقرع الطبول ويلوحون للباشا بالتحية بأعلامهم وطوغاتهم ويقول الباشا لهم: « أمضوا يسر الله لكم أمركم» وعندما ينزل الموكـب من القلعة على هذا النحو ينخرط فيـه، بمقتضى القانون، عشرة آلاف جندى ممن تجرى عليهم الرواتب (النظاميين) وعندما يطوفون شوارع القاهرة على مهـل يصطف الناس على جـانبى الطريق العـام وقد احتشدت جموعهـم لمشاهدة الموكب ويرفع الرجـال أصواتهم بالدعاء قائليـن: «إن شاء الله بالسلامة»، بينـما تطلق نساؤهن الزغاريد ويمشى جند الإسلام يختالون كأنهم الطواويس والبهجة والسرور تعلو وجوههم.

وعندما يصـل الموكب من باب الناصر إلى الموضـع المسمى بالعادلية يلـزم كل مكانه وتكوم كل صناديق الخزانة داخل خيمة بك الخزانـة ثم يأتى على الفور الصيارفة وقدامى الفرق الـسبع ويتـولون جميعًـا عد الخزانة، بـعد ذلك يمررون الـسلاسل فى حـلقات الصناديق ويشبكون طرفـى السلسلة بقفل ثم يغطونها بالبسط ويحـيط بها الناس جميعا لحراستها ويحتشد كـل الجند ويبقى المكلفون بالخزانة، ثم يسترون كـل الصناديق بالبسط الحمر. ولفظ «سترك الله» جاء من هنا. وهذا اللفظ شائع على ألسنة المصريين. ويدوم بقاؤهم فى العادلية ثلاثة أيام وثلاث ليال وفـى هذه الفترة تعم البهجة والسرور وتعزف الموسيقى الـعسكرية وهم يقومون علـى حراسة الخزانة وعند خروج الخزانة مـن العادلية تصدر الأوامـر السلطانيـة إلى بك سبيـل علام وكاشف قلـيوب وصوباشى المدينـة بأن يلحقوا جنودهم بمـوكب الخزانة فى سهل العادلية وتضاء مئات المـشاعل والقناديل حول الجند لحراسة الخزانة.

ولأن صوباشى المدينة مشغول بمهام الحراسة فى العادلية لا تكفى جنود «الديودار» أى حاكم القلعة لحراسة المدينة فيمضى كتخدا الإنكشارية فى ألف أو ألفين من رجاله مدججين بالسلاح إلى الغورية فيقومون بها حتى مطلع الفجر فى لهو ومرح ويؤنسهم ويطربهم مئات المغنيين والموسيقيين، ويختصون بحراسة الأشراف. ويتقاضى أفرادهم المكلفين بإرسال الخزانة مرتبًا سنويا يدفع مقدمًا.

يصدر بك الخزانة أوامره لكاشف قليوب بأن يمضى بجنوده مع الخزانة إلى كاشف الشرقية ويصبح الموكب فى هذا اليوم غاية فى أبهته وعظمته ويمضى جميع القادة المكلفين بالسفر من كل الفرق العسكرية.

الموكب العاشر

موكب الفرقة العسكرية المختصة بالخزانة

وفى اليوم الثالث لا وجود لرجال الباشا ولا لغيرهم من جنده، يقتصر هذا الموكب على قدامى الفرق العسكرية وأثريائها. إنه موكب غاية فى روعته وزينته، وكل من فيه من المسافرين مدججون بالسلاح أما من لا يسافرون يمضون بسيف فقط ويعود الباقون أدراجهم. بعد ذلك ينفخ بك الخزانة فى أبواق الرحيل وتقرع الطبول، وبعد أن يسلم كاشف قليوب الخزانة إلى كاشف الشرقية فى حراسة ثلاثة آلاف فارس يتسلم حجة شرعية بذلك يمضى بها إلى الباشا وعندما يسلم كاشف الشرقية الخزانة إلى باشا غزة يتسلم كذلك حجة شرعية يمضى بها إلى الباشا وعندئذ يطمئن الباشا ويهدأ بالاً ويقول: «حمدًا لله الآن فقط سلمت الخزانة إلى البك ودخل بها حدود الشام». ويباشر الباشا مهامه الأخرى.

ما ينبغى أن نعلمه

ينبغى أن نعلم أن نفقات الخزانة التى تحوى ألفًا ومائتى كيس ومصروفات خلع الجند المكلفين بها ومأكولاتهم ومشروباتهم وعلف خيولهم وخيام القادمين بالبغال وأثمان الصناديق والترقيات التى تدفع إلى بكوات الجند القائمين بهذه المهمة لدى عودتهم إلى القاهرة ومرتبات أغوات الفرق السبع ورؤساء خدم القصر الثلاثة والجاويش والبيرقدار

والطبردار والحاصل ترقيات الـثمانمائة شخص المكلفين بالمهمة والتـى تتراوح بين أقجتين إلى ألف أقـجة يوميًا إضافـة إلى الخلع تصرف لـهم جميعًـا لدى عودتهم سالمـين إلى القاهرة.

وبناء على حساب هـذه النفقات فإن كل خزانة تحوى ألفى كيـس بتمامها ولأن هذه الترقيـات تصرف من الضرائب التى يحصلها البـاشا فإن ذلك يمثـل عبئًـا عليه يقـدر بـ ( )[1] مائة كيس.

وإذا ما أراد الباشا أن يدفع الترقيات طبق الموجود وغير الموجود ومن أدى خدمة ومن لم يؤد فإن الثورة تقوم عليه، وفى النهاية يـتصالح أفراد الفرق السبع مع الباشا على أن يدفع لهم خمسة وعشرين قرشًا على كل أقجة ما لم يكن هناك قرى محلولة.

واتفق ذات مرة أن أحصاهم ( )[2] بغتة فكان بها ثلاثمائة شخص وجاءت التعليمات إلى إبراهيم باشا بأن يدفع المنح لثلاثمائة رجل.

هذا قانون السلطان سليم الذى سيبقى ما شاء الله.

الموكب الحادى عشر

موكب إرسال الباشا «منحة العيد» إلى السلطان

إذا ما وصـلت بـشرى وصول الخـزانة إلى دمـشق مـن بك الخزانـة وأغوات الـفرق المبعوثين يبتهـج الباشا لذلك ابتهاجا لا مزيد عليه. وإذا ما حلـت غرة شهر شعبان يبدأ فى إعداد خزانة منحة العيد (العيدية) ولا يشترك فى ذلك بكوات مصر ويقيد الباشا لهذا أحد أغواته من ذوى الوقار والمنزلة وأحد قواده الأكفاء ويجود بصدقاته على رجال أشداء أكفاء مدجـجين بالسلاح من فـرق التتار والدلاة والمطوعـة والمتفرقة وغيرهـم من الفرق الأخرى إضافة إلى ثلاثمائة رجل آخرون من الشـباب الأشداء المتفردين من الفرق السبع لهم القدرة على استعمال السلاح وركوب الخيـل ويقرر لكل منهم ترقية قدرها أقجه لأن هؤلاء يمضون كأنهم ذاهبين للقتال ويتخطون الخزانة الكبرى ويصلون قبلها بخمسة عشر أو عشرين يومًا إلى الأستانة وهذا عليهم من الحتم.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وتضرب عملة ذهبية خاصة بالسلطان فى دار الضرب من أجل إرسال منحة العيد إليه ويتوسط هذه العملة حلقة من الفضة الخالصة ولا تدخل هذه العملة ضمن ميزانية الخزانة بل هى من صلب مال الباشا وتقدر بـ ( )[1] كيسا من العملة المصرية، وترفق هذه الخزانة بما يقدر بثلاثمائة كيس من السلع النفيسة الواردة من بلاد اليمن والهند والحبشة وتحزم هذه الأمتعة فى صرر.

ترسل عشر صرر منها إلى والدة السلطان وخمس صرر لمحظيات السلطان وخمس لأبنائه وخمس لوالدة كتخدا السلطان وثلاث صرر لأغا السعادة واثنان لخدام الباب العالى واثنان للخزينة دار الرئيس، واثنان لكبير خدام قصر السلطان واثنان لكل سلاحدار وجوقدار وركابدار وأغا القصر القديم ورئيس حاملى الطبر، ورئيس مقدمى القهوة فى بلاط السلطان وهؤلاء جميعًا ممن لهم صلة بالقصر السلطانى.

كما يمنح الصدر الأعظم عشر صرر وعشرة آلاف دينار من ذهب ويمنح كتخدا الصدر الأعظم خمس صرر ويرسل إلى رئيس الكُتّاب ألف دينار وكل كاتب من كتاب التذكرة صرة وثلاثمائة دينار ذهبى، وصرة وثلاثمائة دينار ذهبى لكل من كاتم السر فى الديوان والروزنامجى أفندى وكتخدا بوابى الصدر الأعظم والخزينة دار ورئيس طائفة البوابين ورئيس الجاويشية كما يعطون صرة واحدة لكل من الدفتردار باشا وشيخ الإسلام وقاضى عسكر اسطنبول، إلا أنهم يمنحون لكل من شيخ الإسلام والدفتردار باشا خمس صرر وألف دينار من ذهب أخرى.

ويمنحون كذلك صرة لكل وزير من وزراء القبة السبعة[2].

وبناء على ما سبق ذكره يكون عدد الصرر التى توزع مائة وسبعين صرة.

إلا أن هذه الصرر لا تكفى فيرسل كتخدا الباب صورة من دفتره بأنه استلم مائة صرة وعلاوة على هذه الصرر وعيدية الصدر الأعظم التى تقدر بـ اثنى عشر ألفا من الدنانير الذهبية يرسل عشرة آلاف دينار أخرى كعيديات. ويصبح هذا وبالا عظيمًا على وزراء مصر.

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) اصطلاح يعنى: الوزراء الذين يجتمعون فى قصر طوب قابو فى المكان المعروف باسم تحت القبة للنظر فى أمور الدولة، لذا سموا وزراء القبة. محمد زكى پاك آلپن، معجم مصطلح التاريخ العثمانى ٢/٧/٣٠٧/١.

وبعد أن أرسل إبراهيم باشا خزانة منحة العيد إلى السلطان أرسل مع أحد أغواته وعشرين من رجاله خمسة جياد مطهمة إلى السلطان إضافة إلى مائة جواد أخرى لأعيان الدولة فى اسطنبول.

ومن عجب أنه علاوة على صرر منحة العيد المذكورة أعلاه وما أرسل من هدايا إلى أعيان اسطنبول أرسل إبراهيم باشا مع أحد رؤساء البوابين ثمانين ألف كيلة أرز ومائة ألف كيلة من العدس ومائة ألف كيلة من الحمص والفول وستمائة فردة من البن وألف قنطار من السكر وألف زجاجة من مختلف الأشربة المعطرة وخمسمائة زوج من الحصير الملون ومائة وخمسين من الطواشية إضافة إلى سائر التحف والهدايا من أجل أعيان الدولة ومائة كبش وغزال وعجل وحشى ومائة قفص من الببغاوات والنعام وشحنت كل هذه الهدايا فى السفن فى رشيد والإسكندرية لإرسالها إلى الأستانة.

ويسلم الباشا كل هذه الأموال إلى أغا الخزانة وعندما يمضى جند الباشا فى موكب غاية فى الزينة وهم مدججون بالسلاح يمضى كذلك كتخدا الباشا وأغا الخزانة جنبًا إلى جنب ويقيمون جميعًا فى سهل العادلية ويحتشدون فى خيمة أغا الخزانة وفيها يمنح كتخدا الباشا أغا الخزانة أربعة أكياس نفقة الرحلة وأربعة آلاف أقجة لكل من رجال الباشا ويقوم جند مصر وجند الباشا بحراسة الخزانة. وبما أنهم فى مقر إدارة بك سبيل علام وكاشف قليوب يحيط الخزانة ألفى فارس طيلة ثلاث ليال لحراستها ,ثم يودع أغا الخزانة الكتخدا ويدخل الأخير إلى القاهرة ثانية، ثم تمضى الخزانة إلى الخانكة ومنها إلى بلبيس فيتسلمها كاشف الشرقية، وفى غضون عشرة أيام يسلمها إلى باشا غزة وتصبح فى حمايته.

وبعد قطع المنازل وطى المراحل تصل هذه الخزانة إلى الدفتردار باشا فى الأستانة قبل العيد، ثم تعرض بعد ذلك على السلطان وتسلم إلى الخزانة السلطانية ويقوم كتخدا الباب العالى بتوزيعها فى وجوهها بموجب الدفتر، وبعد ذلك مباشرة فى منتصف شهر

رمضان يأتى المبشرون من جند مصر ويحظون بالخلع والترقيات. وفى الخامس والعشرين من شهر رمضان يسلم بك القاهرة الخزانة فى موكب عظيم ويسعد القادة بالخلع السلطانية ويقيمون فى قصر مخصص للوزراء، وتحصى الخزانة ويعد محتواها ويبدو أن هناك خمسة أكياس أو أكثر ناقصة حسبت على كتخدا الباب.

تصرف رواتب الجند بمناسبة حلول العيد، ثم يحصون عدد الجند القادمين مع البك المصرى وتصل الفرمانات إلى الباشا متضمنة عدد الجند القائمين بمهمة إرسال الخزانة وأنهم سلموها ويستحقون أن ينالوا «الترقيات»، وما عدا ذلك من الأسماء لاحق لهم فى أى منح. ولقاء وصول الخزانة الكبرى وخزانة منحة العيد إلى السلطان يصل الباشا مع أحد رؤساء الباب العالى السيف والقباء، فيمنح الباشا من يحمل إليه هذا القباء وهذا السيف خمسة عشر كاتبًا.

الموكب الثانى عشر

موكب وصول السيف والقباء

إنه موكب كبقية المواكب السابقة المفروضة، لا فرق بينه وبينها فى شىء. ولا يشارك فيه جند مصر، وكل ما فى الأمر أن جند الباشا يمضون إلى العادلية ويرسلون المطبخ إلى هناك قبل ذلك بيوم واحد، وتبسط الأسمطة ويطعم الطاعمون ويمضى كتخدا الباشا مع الأغا الوافد ويدخلان من باب الناصر فى موكب عظيم وسط جموع الناس ويصل إلى قصر الباشا فى القلعة، وفى الديوان تتلى الأوامر السلطانية ويجىء فيها:

«وصلتنى خزانتك أيها الوزير بالتمام ولقد أرسلت إليك سيفا وحلة فاخرة، فلتكن فى خدمة الرعايا والبرايا ولترعى أمور مكة والمدينة».

ويلبس الباشا الخلعة الفاخرة ويعلق السيف البراق فى وسطه فيزيده ذلك هيبة ووقارًا.

الموكب الثالث عشر

موكب الصرة المحمدية من مصر القاهرة إلى الشام

لم يكن لتلك الخزانة وجود فى قانون السلطان سليم ولكن صدر الأمر السلطانى بها فى عام ١٠٨٢هـ بمشورة الكتخدا إبراهيم باشا، ولأن السفر من إستانبول إلى المدينة مع أمين الصرة كان أمـرًا عسيرًا فقد تقرر تسـليم الصرة إلى أمينـها فى موضع ( )[١] على مسافة عشرين منزلاً بين مصر والشام وقد استحسن أن يسافر بها أمين الصرة ووالى الشام ( )[٢] بخفة إلـى استانبول لتسلـيم الصرة إلى الشخص المـكلف، وفى الخامس عشر من شهر رمـضان المبارك تخلع خلعة فاخرة للأغا المـدبر الذى سيكون مع الصرة سردارًا لهـا، وتمنح ألف پارة كل من أغوات البـاشا الثلاثمائة الشـجعان الأبطال الذيـن يؤلفـون عشرة طـوابير، وألـف پارة لكل بـطل من المـائة المصـريين المدجـجين بالسلاح. ولـكن ليست لهم ترقـية ميرية، لأن هذا السفـر خدمة سخرة يكلفـونها من أوجاقاتهم.

يمنح أغا الباشـا كيسًا لنفقات الطريـق وفى حضور كل العلماء والصـلحاء والأعيان يتسلم الباشـا بيديـه اثنتـين وسـتين ألف سَكّة تزن مثقالاً كاملاً من الذهب البندقى ـ والمثقال يزن مائة حبـة حنطة ـ، فقد قطعت هذه القطع الذهبـية على أن تزن كل مائة قطعة منها مائة وستة وعشر درهمًا كامل العيار تام الميزان. إن وجد فى قطعة منها نقص مقدار حبة قمح، وعَرَض شريف مكة وشيخ الحرم بالمدينة بأن صرتهم جاءت ناقصة فى هذا العام، فإن هذا يحدث اضطرابًا فى أحـوال وزير مصر. فلذا تحضر هذه الخزانة من الذهـب الخالص النـظيف الطـاهر. وتحمل هـذه الخزانة عـلى بغال الـباشا من مـيدان السراى، ثم يمر رجال الباشا والمعينون لمرافقـتها من المصريين أمام الباشا دون أن ترافقهم الفرقة المـوسيقية. فقط تـقرع طبول أغا الباشـا وسردار الخزينة دار، ويجتـازون القاهرة شاقين طريقهم فى بحـر متلاطم من البشر، ثم يتوقفون فى العادلـية، وهناك تُسلم إلى أمين الصرة، ويأخذ أغا الـباشا الحجة الشرعية، وفى اليوم الخمسـين يدخلون مصر مرة ثانية.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

الموكب الرابع عشر للخزانة

(موكب الكسوة السوداء للكعبة)

سلف وصف الكسوة الشريفة غير مرة، وهى كذلك إحدى الخزانات السلطانية. إلا أنها ليست من أوقاف آل عثمان. إنها أوقاف شجرة الدر فى عهد سلاطين الأكراد، ولم تكن من قبل لأحد الملوك بل استأثرت بها شجرة الدر.

والآن هناك عشرة قرى معمورة بالقرب من القاهرة، يتحصل منها سنويًا مائة وسبعون كيسًا، يشترى بها ناظر الكسوة سبعين قنطارًا من الحرير وثلاثة قناطير من الفضة الخالصة. وفى شهر المولد يبدأ مهرة الصناع فى صنع الكسوة وفى شهر رجب يقوم ناظر الكسوة بعرض نماذج للكسوة الشريفة على الباشا، وإذا كانت غاية فى دقة الصنع خلع الباشا الخلع الفاخرة على ناظر الكسوة وصناعها المهرة. وإذا كانت على العكس من ذلك أغلظ عليهم اللائمة وأخذهم بشديد العقاب.

ومن غرة شهر شوال تبلغ الباشا البشرى بالانتهاء من صنع الكسوة الشريفة، فيأمر بإعداد الموكب. وعدد الجند فى هذا الموكب قليل ويقتصر على كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وناظر الكسوة وأمينها ودراويش مائة وسبعين طريقة صوفية.

وقبل الموكب بيوم يحضرون الكسوة الشريفة إلى الباشا فيزنها ويفحص ما فيها من أشغال الصرمة والحرير ويحاسب ناظر الكسوة على ذلك. وإذا وجدها الباشا على خير ما يرام ألبس ناظرها خلعة، أما إذا نقص من خيوطها الذهبية شىء أخذ من ناظر الكسوة عدة أكياس ليعفو عنه.

وفى صبيحة اليوم التالى تخرج الكسوة الشريفة من جوسق يوسف حيث إنها تصنع هناك و يثبتونها على إطار من خشب فى حجم الباب الشريف للكعبة خارج باب الوزير لقياسها وهذا الإطار الخشبى يقام على أوتاد يصنعه أهل المغرب. وستار الباب الشريف غاية فى ارتفاعه وبما أن باب القلعة لا يتسع له يفتحون هذا الستار خارج باب القلعة.

ويحملون مع الكسوة عشرين لفافة سوداء لكسوة الكعبة وعشرين لفافة أخرى من الحبال الغليظة وردية اللون لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة، وثمانية صناديق تشبه النعوش تحمل عليها الأجزاء الثمانية الخاصة بأحزمة الكعبة والتى يبلغ طول الواحدة منها عشرين ذراعًا وكذلك تبسط سترة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ على إطار خشبى ويزينون كل ذلك.

يتلقى جميع المشايخ الخبر بذلك ويبدأ الموكب فى التحرك من باب الوزير إلى مشهد الإمام الحسين، وتمضى حبال الكعبة فى المقدمة ويتصدق بعض الناس على حاملى الكسوة من المغاربة، ويقتربون منهم ويمسحون بوجوههم الكسوة تبركًا وتيمنًا. وكل لفافة من هذه اللفائف يحملها مغربى على رأسه وذلك اليوم يوم المغاربة.

يحضر هؤلاء المغاربة الكسوة وهم يرددون (لا إله إلا الله محمد رسول الله). والكسوة بتمامها سوداء لذلك تسمى الكسوة السوداء لبيت الله. وبعد الكسوة تمر الصناديق التى تشبه النعوش والبالغ طول الواحد منها عشرة أذرع وبها أحزمة الكعبة وهى مزدانة بالذهب حتى إن من يشاهدها تبهر نظره.

وفى هذه الكتابة الذهبية لهذه الأحزمة آية كريمة هى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ [النور: ٣٦]، وكلها مذهبة وليس فيها ألوان. وعرض الحزام من هذه الأحزمة ذراعان، أما طوله فعشرون ذراعا. ويحمل المغاربة كذلك هذه الأحزمة الثمانية، ويمضى خلفهم الجند حتى لا يصيبهم أحد بسوء ويمضون إلى ميدان القصر لعرضها على الباشا. وعندما يراها الباشا يمسح وجهه عليها ويدعو لهم بالخير ويثنى عليهم ويأمرهم بالمرور أمامه تباعًا ثم يبتهل شيوخ مائة وسبعين طريقة صوفية وما يربو على أربعين ألف درويش ذاكرين الله، ويقرعون الطبول وينفخون فى الأبواق، ويغيب الصوفية فى نشوة، ويمر الموكب والجميع يوحدون الله ويذكرون ويشكرون بصوت رخيم، وهؤلاء المشايخ العشرة آلاف يحملون أعلامهم موحدين الله ويستغرق مرورهم أربع ساعات.

ثم تمر بعد ذلك كسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى كذلك مزدانة بالذهب ويحملها رجل على رأسه فى صندوق مغطى وتكون هذه الكسوة غاية فى دقة الصنع ولا يخفى على الصوفية أن يشاهدونها.

ثم يأذن الباشا لنساجى الكسوة الشريفة الأربعين ويمرون مثنى مثنى أمامه ويخرج وراء هؤلاء بالتبعية كل من فى مصر القاهرة من صناع الحرير والمخمل وفى هذا الموكب يجرح كثير من الناس لشدة الازدحام. لأن الناس يجتمعون مزدحمين على جانبى الطريق لمشاهدة الكسوة الشريفة وكسوة مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويمسحون وجوههم على الكسوة الشريفة تبركًا. ويتفق أن أحدا كان يمس بطرف عمامته الكسوة فسرق منه أحد الرعاع عمامته.

وبعد مرور مهرة صناع الكسوة يبدأ مرور جند أمير الحج وهم كذلك يحملون أسلحتهم ويمرون مثنى مثنى. ويخرج المغاربة حاملى كسوة باب الكعبة الشريفة مهللين مكبرين.

إنها كسوة باب رائعة مزركشة مختلفة الألوان والزخارف، طولها عشرة أذرع تنسج فيها بخيوط الذهب عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وبعد مرورها يمر المحمل الشريف على جميل جميع مخضب بالحناء.

ولما كان جان بولاد زاده عزيزا لمصر جدد كسوة الكعبة بالذهب فأصبحت كأنها النور الإلهى.

وجملة القول أن اللسان يعجز عن وصفها. وفى هذا العام يمر المحمل فى هذا الموكب العظيم وفى وقت آخر يمر مع أمير الحج، وبجانب هذا المحمل يمشى عدة آلاف من العكامين وحاملى المشاعل وهم يقرعون الدفوف والطبول صائحين بقولهم (الله ينصر السلطان) ويمضى رؤساء الحرفيين ثم ناظر الكسوة وكتخدا أمير الحج وأمين الكسوة وقد لبسوا ما خلع عليهم الباشا من خلع، ويتبعهم أغوات القصر حاملين سلاحهم وهم كاملى الزينة وخلفهم كذلك فرقة موسيقى أمير الحج وهم يقرعون الطبول ويَصْطَفُّ الناس لمشاهدة هذا الموكب فى حشود وحشود.

تصل الكسوة الشريفة إلى مقام الحسين وهنا توضع الكسوة الشريفة وغيرها من الأمتعة ويحتشد العلماء هناك سبع ليال محتفلين بذلك ويقيسون أستار وحبال الكسوة الشريفة. ولأن محيط مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه يماثل محيط الكعبة الشريفة يحيطون أعمدة مشهد الجامع بالكسوة الشريفة ويقيسونها بناء على ذلك ثم يرسلونها إلى الكعبة فتكون مناسبة لحجم الكعبة تمامًا.

إن أوقاف هذه الكسوة أوقاف عظيمة عجيبة. وفى الزمان الخالى كان تبابعة اليمن يكسون الكعبة المعظمة كل عام بحصير منقوش والتبابعة هم ملوك اليمن. ومن بعد كساها هارون الرشيد العباسى بالحرير، ثم كساها الخليفة المأمون بالحرير الأحمر. وفى المرة الرابعة لما ملك ملوك الترك مكة كان لأحد ملوكهم وهو أيبك زوجة تسمى شجر الدر كست الكعبة بالحرير الأسود وخصصت لذلك أوقافا وهذه الأوقاف قرى مُسَلَّمة معفاة من الضرائب ومن يعين ناظرًا للكسوة ملتزم بمائتى كيس من العملة المصرية.

إنها قرى غاية فى كثرة خيراتها. إلا أنه عندما فتح السلطان سليم مصر أضاف إليها أوقافا أخرى.

وذلك الحزام المذهب للسلطان سليم، أما كسوة الباب الشريف فمن أوقاف السلطان سليمان، أما الميزاب الذهبى فمن أوقاف السلطان أحمد وتجديد مقام إبراهيم فى كل عام هو وقف السلطان إبراهيم. رحمة الله عليهم أجمعين. حقًا إنها أوقاف تليق بعظمة السلاطين وهذا الموكب موكب لا يكون لملك عظيم وهو يستحق المشاهدة.

الموكب الخامس عشر

موكب أمير الحج وخزانة نفقات مكة والمدينة والحجاج

هذا الموكب كذلك موكب عيد لأهل القاهرة وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال يشكل موكب أمير الحج وقبله بخمسة أو عشرة أيام يستأجر المصريون الدكاكين بخمسة أو عشرة قروش ويسكنونها مع أطفالهم وذويهم ومعهم أطعمتهم وأشربتهم لأن مرور هذا الموكب والمحمل الشريف من الصباح إلى العصر. لذا يقيم جميع الناس فى الدكاكين ومعهم أطعمتهم وأشربتهم.

يزين المحمل الشريف فى حارة مشهورة، ويخرج فى عظمة وجلال، وقد بقيت هذه العادة منذ عهد السلطان بيبرس، والمحمل الشريف فى أول الأمر لم يكن يخرج على هذا النحو من المراسم فجعل له السلطان بيبرس هذه الصفة رحمه الله.

وفى ليلة الموكب بعد العصر يحضر كتخدا أمير الحج وجميع مشاهير المشايخ والعلماء وجند أمير الحج وعدة آلاف من المتصوفة قارعين طبولهم مع مائة من الجمال ومئات البغال وجمال السبيل التى تسمى جمال الصحابة وهى تحمل آلاف القرب المملوءة بالماء العذب والمحمل الشريف إلى قره ميدان فى موكب عظيم، وفى صُفَّة سبيل الظاهر بيبرس ينزلون المحمل الشريف ويضعونه هناك وبجانبه، يقيم كتخدا أمير الحج خيمته ويقيم فيها، كما يقيم جند أمير الحج وسائر الشيوخ الخيام والسرادقات ويمكثون فيها. ويعقلون الآلاف من الجمال صفا صفا فى قره ميدان ويخطرون الباشا بوصول المحمل الشريف إلى قره ميدان، وفى التو يقيمون ظلة للباشا على مصطبة بك الإصطبل (أمير آخور) وفى هذه الليلة يكون الجميع تحت إمرة كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، ويصعد آذان المغرب وبعد أداء الصلاة تزين كل الخيام والسرادقات التى فى الميدان بآلاف المصابيح والمشاعل فيصبح الميدان مغموراً بالنور.

يأتى عدة آلاف من الشيوخ والفقراء من أهل المدينة ويحتشدون حول المحمل الشريف ويبتهلون إلى الله حتى مطلع الفجر ويبسط الباشا عشر موائد لهؤلاء المشايخ لأنهم ضيوفه وعليه إكرامهم، ويرسل رئيس خدام سرادقات الباشا نصف أوقية من البخور وتشعل النار فى المباخر ويحرق فيها البخور وينثر ماء الورد على جميع الشيوخ والمتصوفة ويتلون المولد النبوى حتى مطلع الفجر، ويختمون القرآن فى كل مكان ويبتهلون إلى الله، وفى الصباح تقرع طبول كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة وترفع جميع الخيام والقناديل ويحملون الجمال بأمتعتهم ويقفون على أهبة الاستعداد.

وفى وقت السحر يقدم جميع أرباب الديوان والبكوات الشراكسة ويجلسون على الكراسى فى سرادق الباشا المزين. وكل من يلحقون بخدمة الحجاج من الجورباجية

والقواد والجاويشية وحاملى الأعلام وحاملى الطبر والقلجدار والأعيان والأشراف رؤساء سقائى قافلة الحج يزينون رءوس الجمال وتصبح وكأنها التنانين ذات الرءوس السبعة وتزدحم ساحة قره ميدان براكبى الهجين من الحجازيين والناس يطوفون بجمالهم.

ويزين كل جمل بما يزيد على خمسين علمًا منقوشا والمحفات المزخرفة والهوادج وتطوف فى الميدان وينفخ فى الأبواق وتقرع الطبول فى أرجاء الميدان وتخرج الكسوة السوداء المزينة فى قره ميدان، ثم يقدم القاضى عسكر أفندى ونوابه الأربعة والعشرون وكل أتباعه وعلى رأس كل منهم العمامة المعروفة بـ «عرفى» ويجلس قاضى العسكر بجانب الباشا فى صدر سرادق الباشا المزين وينتظرون كلمة أمير الحج ثم يأتى عدة آلاف من أتباع سيدى ( )[1] الساداتى فى موكب حاملين اللواء النبوى الشريف وتأتى مواكب قاضى العسكر والشيوخ والأئمة والخطباء وشيوخ البكرية والساداتية وينزلون فى سرادق الباشا ويجلسون خلف القاضى عسكر ويكتظ قره ميدان بجند الأوجاقات السبعة. ثم:

موكب أمير الحج باشا

على الرغم من أنه من أمراء مصر القاهرة إلا أن له طوغان وبدو الصحراء يسمونه «سلطان البر» ويصرف له من قبل السلطان ستة وثلاثون كيسًا نفقة السفر. ولأمير الحج قرى عظيمة الخيرات خاصة به، ويتحصل له كذلك منها أربعون كيسًا، وله علوفة سنوية من ديوان مصر قدرها اثنى عشر كيسًا.

وحقيقة الحال أن أمير الحج له مرموق المكانة فى مصر حتى إن وكيله (الكتخدا) يضع فوق عمامته المجوزة ريشة كوزير مصر، لأنه وكيل السلطان.

يمنح أمير الحج مائتا جمل من المال الحكومى ويشترى كذلك ألف جمل من ماله الخاص ولا يكفى ذلك فيمده أصدقاؤه بالعون فيتحصل له كذلك خمسمائة جمل حتى يبلغ عدد الجمال التى يملكها ألفى جمل لأن كل حجاج مصر فى حاجة إلى معونته ويمنح كذلك خمسمائة جندى من الأوجاقات السبعة دفعت أجورهم ونصفهم يحملون

(١) بياض فى الأصل.

المعونات إلى جدة فى بحر السويس ويذهب النصف الآخر فى مَعِيَّة أمير الحج ويقومون على حراسة قواده ويبقون فى مكة. وثمة خمسمائة جندى آخرون يسمونهم بالسبعين (يتمشلى) وهؤلاء كذلك يذهبون ويعودون مع أمير الحج وعندما لا يكون أمير الحج حاضرًا ثم يظهر أثناء عزف الموسيقى فالجند الذين فى قره ميدان ينقسمون طائفتين ويَصْطَفُ العزب فى جانب والإنكشارية فى جانب آخر لأداء التحية، وفى جانب سباهية الأوجاقات السبعة وهم فى ثيابهم المزركشة وعلى خيولهم الفارهة مدججين بالسلاح ينتظرون تحية أمير الحج.

أما أمير الحج فيمضى بين الصفين فى موكب ويلوح بالسلام إلى الجانبين وتعزف الموسيقى العسكرية فينزل الباشا إلى السرادق ويتقدم جميع البكوات ويجلس أمامهم، ثم تطلق المدافع تحية ويطوفون بعلم رسول الله ﷺ والمحمل الشريف على الجمال فى ذلك الميدان ثم يتقدم أمير الحج إلى الباشا وعندما يقولون للباشا إن أمير الحج جاء وكل الجند والموكب فى انتظار تشريفه، ينضم الباشا إلى الموكب ويمضى أغوات واجب الرعايا فى المقدمة مشيا، أما رؤساء البوابين فعلى الجياد مع خدامهم وعلى رءوسهم العمامة البريشانى مع جاويشية السلام وكتخدا البوابين ورئيس التراجمة ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية وهم جميعًا على جيادهم، ثم يمضى الباشا يرتدى قباء فرو السمور وعمامته المعروفة بـ «سليمى» وخلفه السلحدار و الجوقدار وهم بسراويلهم وخفافهم الخاصة بهم مع أربعة وعشرين من أغوات الداخل أصحاب المراتب وهم على جيادهم ويحملون سيوفهم.

ينزل الباشا فى سرادقه المزين فى قره ميدان وعندئذ يصطف له عامة الجاويشية وعندما يجلس فى مكانه يبدأ أمير الحج بتقبيل يده ويجلس هو الآخر فى مكانه، وبعد أن يتجاذب معه أطراف الحديث يدعو الباشا بقية الأعيان لمجلسه، وعندما يسأل الباشا أمير الحج عما إذا كان قد أخذ كُلَّ نفقاته ونفقات صرر شرفاء مكة المكرمة وغير ذلك من نفقات يجيب أمير الحج قائلاً: تسلمتها كاملة غير منقوصة، وعندئذ يأمر الباشا المولا افندى قائلاً اكتب ذلك فى السجلات ويطرح الباشا السؤال ثلاثة على القواد المكلفين برعاية الحج عن أخذهم المهمات والمأكولات والمشروبات والجمال والبغال

ومرتبات عام مسبقا فيجيبونه كذلك قائلين: تسلمنا ذلك وسجلناه، وعندئذ يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات، ثم يخلع على أمير الحج خلعة مذهبة، وإذا كان مقربا إليه مختصًا به يلبسه فرو السمور، كما يخلع على الكتخدا ومحافظ القلعة وقواد الأوجاقات السبعة وحاملى اللواء وجاويشية المحمل وقاضى المحمل وإمامه والمؤذنين وأغا بيت المال من أغوات الباشا، وكاتبه، فيكون عدد من يخلع عليهم مائتين وعشرة ممن اشتركوا فى هذا الموكب.

ثم ينهض الباشا من مجلسه قائلاً: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويترك فرسه ويمضى على النعلين حتى يصل إلى الجمل الذى يحمل المحمل ويمسح بوجهه وعينيه المحمل الشريف ويقول: (بسم الله) ويمسك بالزمام الفضى للجمل ويطوف هذا الجمل فى الميدان غير مرة وبذلك يكون جَمَّالَ رسول الله ﷺ ويقوم بخدمته ويأمر جميع البكوات بالسير معه حفاة ويصعد العسكر صيحة عالية قائلين: (شفاعة يا رسول الله) ويرتفع دعاؤهم إلى عنان السماء ومن يرى الباشا على تلك الحالة وهو على صورة الجمال يبكى فلا يبقى فى الروح بقية.

ثم يوجه الباشا حديثه إلى أمير الحج قائلاً: إن مكة والمدينة لسلطان آل عثمان وهو خادم الحرمين الشريفين وأنا فى يومى هذا وكيله وعبده المملوك وبمقتضى وكالتى سلمتك المحمل الشريف وأنا أستودع الله الحجاج السالمين الغانمين وقد عهدت إليك بهذا. هل تسلمت المحمل الشريف؟ فيجيبه أمير الحج قائلاً: نعم تسلمته وبمجرد أن يتسلم منه الزمام الفضى للجمل فى يده يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات. ثم يجلس الباشا تحت ظلته. وبينما يسير أمير الحج المحمل الشريف تبدأ المواكب فى التحرك والحاضرون فى هذه الساعة يقيدون فى دفاترهم ما شاهدوه ويرفعون أصواتهم بالدعاء والحمد والثناء وتبدأ المواكب فى الانسحاب، ويودع أمير الحج الباشا ويمتطى صهوة جواده ويولى وجهه شطر الحجاز.

عبور ما تحمله القافلة من أمتعة مع أمير الحج

يمضى آلاف الجمالة والعكامين وحاملى المشاعل بجمالهم ، ثم تمضى الجمال التى تحمل قرب الماء، ثم تمر فرق الجبه جيه والعزب مع ستة مدافع ضخمة على المركبات وهم ثلاثمائة جندى، ثم يمر بعد ذلك جميع أمتعة وخيام أمير الحج.

ذكر سبب المحمل الشريف وذكر كبار المشايخ

وإذا سئل عن أصل إحضار المشايخ المحمل الشريف قلنا: إن الظاهر بيبرس من سلاطين الشراكسة هو أول من سن قانونا بخروج المحمل الشريف إلى العادلية فى موكب عظيم، وفى ذلك العهد كان سيدى الشيخ مرزوق كفافى قطبا عظيما من أقطاب التصوف، وكان آنئذ على قيد الحياة، وأخذ المحمل من يد الظاهر بيبرس، وبينما كان يطوف به صاح قائلاً: «أنا لويس وأنا لويسى وكيسى»، وذهب بالمحمل الشريف إلى الكعبة على النعلين ودخل المدينة المنورة وزار الروضة المطهرة ودخل الشبكة النبوية الشريفة وعندما خرج رأوا على رأسه عمامة جمال مزينة بالجواهر ثم عاد بالمحمل إلى مصر على النعلين كذلك وكان طوال حياته يمضى إلى مكة فى صحبة الدراويش وكان أول من ذهب بالمحمل الشريف وأصبح ذلك قانونًا مرعيًا.

أخذ مصطفى أفندى المحمل من يد الشيخ كفافى وأحضره إلى العادلية حتى وقت الغروب وهذا أقدم من القانون وفى يومنا هذا المحمل الشريف لمشايخ الصوفية.

والسبب فى قيادة الصوفية للمحمل هو أنه ليس فيهم أحد من طائفة الجند، إنهم جميعًا من المتصوفة ولو كان فيهم أحد من طائفة الجند يبايعهم ويسير فى أثرهم، فقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم): «الفقر فخرى». (بيت):

والله إننا لنفخر بفقرنا فى كبرياء ∴ لذلك نسير فى صفة الفقراء

وفى مصر ١١١٧ طريقة صوفية ولكن أكبرها مائة وأربعون وهذا ما سبق ذكره فى حديثنا عن التكايا والدراويش ولا حاجة إلى مزيد من القول فى هذا الصدد. ولكن هؤلاء المائة والأربعون طريقة لهم ثلاثمائة وستون (٣٦٠) تكية. وأعظم هذه الطرق عددا هى الطريقة الأحمدية. فصوفية سيد أحمد البدوى لا يدخلون تحت حصر، فقد انتشرت هذه الطريقة فى مصر كما انتشر المذهب الشافعى فى مصر وكردستان، أما عبد القادر الجيلانى فقد انتشرت طريقته فى الهند وبغداد، أما طرق الخلوتية والمولوية والجلوتية والبكتاشية فانتشرت فى الأناضول. كما انتشرت طرق الواحدية والحيدرية والشمسية والبكتاشية والقلندرية فى إيران.

ويلى الطريقة الأحمدية فى كثرتهم بمصر أصحاب الطريقة البرهانية ولا يعلم عددهم إلا الله والصوفية إذا ما التقوا يعرف كل منهم طريقة الآخر.

وفى بداية موكب المحمل الشريف يمضى متصوفة الطريقة المطاوعية وهم فى نشوة وفى أيديهم الرماح والسيوف والتروس وهم ألفا متصوف فى موكبهم يقرعون الدفوف والطبول وينفخون فى الأبواق رافعين ما يزيد على خمسمائة علم وهم يهللون ويكبرون ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر، وكأنهم فى حرب ويمزق بعضهم ثياب البعض ويمرون وهم يوحدون الله.

ثم يمضى بعدهم دراويش الواحدية والحمزوية والبيرامية والصعودية والعشاقية والمولوية والشمسية والولدية والعبائية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية، وهؤلاء آلاف من الدراويش يرفعون أعلامهم ويمضون طريقة طريقة وشيوخهم على جيادهم ويزينون جوانبهم الأربعة بالأعلام وهم يوحدون الله ويبتهلون قارعين طبولهم ودفوفهم وتملأ أصواتهم جنبات القاهرة وفى هذا الموكب عدد دراويش الدسوقية والبرهانية ليس بالكثير ولهم رايات بيضاء وسوداء، ويمضى بعدهم صوفية طريقة حسن الراعى والطريقة الرفاعية والسعدية والأحمدية وهم يربون على العشرين ألف درويش، وهم من مختلف الطرق الصوفية، ويعجز كُتّاب الدينا حصر أوصافهم.

أما ألوية الأحمدية فحمر ومشايخهم يمضون فى وسطهم على جيادهم وأمامهم آلاف من الدراويش مشغولون بالابتهال ويمضون وهم يقرعون آلاف الطبول والدفوف ويدقون الأجراس، ويتلوهم دراويش طريقة عبد القادر الجيلانى ومنهم عدة آلاف من المجاذيب يمضون حُفَاةَ الأقدام حاسرى الرءوس.

ثم يأتى الدور على متصوفة طريقة مرزوق كفافى الكَلشنية، والطريقة الإمبابية والشناوية والكميلية، والطريقة النقشبندية والروشنية، وطريقة نعمة الله، والطريقة النوربخشية والطريقة السعودية والليثية والفارضية والزينية والفنائية واليمنية والجنيدية والإدريسية والعبائية والشاهينية والجيوشية والجهينية. وهؤلاء من أتباع الطرق الصوفية

كل منهم يوحد الله حسب مراسم طريقتهم القديمة، وهم كذلك يقرعون الطبول والدفوف ويدقون الأجراس وينفخون فى الأبواق وهم فى حالة من النشوة والجذب.

بعدهم يمضى دراويش الطريقة اليمنية وهم مجاذيب يمضون حفاة عراة حاملين السيوف والطبر والعمد والترس وسيوفًا من خشب، ولهم أعلام مختلفة ولكنى لم أسمع توحيدهم.

ويمضى بعدهم أصحاب الطريقة الفنائية ومعظمهم ممزق القميص حافى القدم حاسر الرأس وبعضهم يلبس خرقة من صوف تزن الواحدة منها أربعين أوقية أو أكثر وبها جيوب متنوعة فمأكولاتهم ومشروباتهم وأباريق قهوتهم وبنهم وتبغهم وكل ما يحتاجون إليه يحملونه فى هذه الجيوب وكأن الواحد منهم حجرة متنقلة. ومعظمهم دراويش معدمون ينامون حيثما شاءوا ولا يملكون الدانق، وفيهم من لهم ألف رقعة فى خرقتهم.

وبعضهم يمضون وعلى رءوسهم آنية مائلة ويحملون الطبر والرمح المذهب والعصى المزينة ووضعوا على رءوسهم عمائم الفنائية ذات الذوائب كأنها حمل بعير وقد ازدانت بالخرز وعلى أوساطهم جلد منقوش عليه حزام مزين بأحجار ذات ألوان.

وقد أعجبت بنفخ صوفية العجم فى أبواقهم ومن الحق قولنا إن الاستماع إلى نافخى الأبواق من اليمن ينفخ الروح الأبدية فيمن يلقى السمع إليه.

ويمضى دراويش الفارضية والشاهينية والجيوشية والجهينية واليسوية وهم ينشدون قصائد ( )[1] والأشعار العربية.

وهذه الطرق سالفة الذكر خاصة بمصر، ولم تكن لها الشهرة فى بلاد أخرى.

وبعد ذلك يمر دراويش الطريقة الخلوتية وهم يذكرون الله فى رعاية للتقاليد والمراسم الخلوتية، وبعدهم دراويش الطريقة الخواجه كانية أى الطريقة النقشبندية التى ينتهى نسبها إلى سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ومعظم دراويشها من الأوزبك وهم ينطقون بالتوحيد فى تضرع وخشوع رافعين راياتهم، ولكن ليس لهم طبول ولا دفوف

(١) بياض فى الأصل.

ولا أجراس ولا أبواق، وعندما يمرون لكل منهم أسلوبه فى التوحيد تنشق مرائر الناس ويبلغ منهم العجب مبلغه وفى هذا اليوم يغمر النور طرقات مدينة القاهرة وأسواقها.

ثم يأتى الدور على دراويش طريقة عمر الروشنى وطريقة الشيخ إبراهيم اليُلْشَنى وهم كذلك بلا طبول ولا دفوف ولا يرفعون أصواتهم، وعليهم خرقتهم وقد لفوا على رءوسهم الشيلان الكشميرية واللاهورية والبهارية ويمرون يذكرون الله ومعهم شيخهم چلبى أفندى على صهوة جواده رافعين الأعلام.

وعندما يقترب دراويش الطريقة البكتاشية من معسكر الإنكشارية الذى يتولى مهمة رعاية المحمل الشريف يمضى مائتان من الصوفية وعليهم خرقتهم البيضاء النظيفة وهم حفاة الأقدام حاسرو الرءوس وعليهم اثنتا عشرة علامة رمزًا للأئمة الإثنى عشر والأئمة الراشدين وهم على وعمر وعثمان وأبو بكر العتيق وعليهم ندوب جراح عشقهم لشهداء كربلاء وعلى أذرعهم وصدورهم جراح لمقتل الحسين، وأجسامهم قوية وعيونهم مكتحلة، وصدورهم عارية ويمضون موكبًا من الدراويش مرددين اسم الله، وبعدهم تمر أطفالهم يحملون العمد وعندما يمرون خلال السوق ينشدون أبياتًا وقصائد فى مدح النبى ﷺ والخلفاء الأربعة ـ رضوان الله عليهم ـ فينشدون:

أصبح قبلة أهل الصفا وجه محمد
أصبح محراب أرباب القلوب حاجب محمد
حلقة سلسلة الجنون فى رقبتى
من حب ذؤابة محمد ذات العبق

ويرددون ذلك الشعر فى عشق المصطفى ﷺ وهم مارّون.

الموكب السادس عشر
وصول حملة المشاعل والعكامين
من القاهرة إلى بلبيس فى ثمانى ساعات
وادعاؤهم - فى ديوان مصر القاهرة -
أن المحمل الشريف لهم يحملونه مع علماء مصر

وبعد مرور هؤلاء يسمع صوت مرتفع صادر عن عدد عظيم من الجند من سمعة ركع على رُكْبَتَيه وقد استولت عليه الدهشة فينبع من كبده النجيع وتنهمر الدموع من عينه مثل «جيحون»، ويرتفع صوت الطبول والدفوف والأبواق إلى عنان السماء، أما أصحاب هذا الصوت فيأتون رويدًا رويدًا بينهم عكامون وخيامون لخدمة سبعين ألف حاج ويقول جمع غفير بينهم (الله ينصر السلطان، إن شاء الله بالسلامة) ويمضون وهم يوحدون الله.

إن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب للصوت الحزين لهذه الطائفة. ويمرون حاملين المشاعل على أكتافهم وهم مبتهجون وبينهم اثنى عشر من رؤساء حملة المشاعل لقادة الأوجاقات السبعة وأمير الحج ومحافظ القلعة ورؤساء السقائين وهم يحكمون مصر القاهرة وهم قادة عدة آلاف من حملة المشاعل ولهم السيطرة على جميع من يحملون المشاعل ويقولون إن سلسلتهم تنتهى إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهم أصحاب امتيازات عظيمة وهؤلاء الرؤساء الإثنا عشر يخرجون من باب الناصر بالقاهرة، ويبلغون بلبيس فى أربع وعشرين ساعة ويمرون بالمحكمة ويطلبون الحجة الشرعية، ولا يتوقفون قط، ويغادر بلبيس ألف رجل ويعودون فيجدوا الحجة قد كتبت، وبعد الوداع يمضون إلى القاهرة، وعندما يبلغونها تكون بعض جيادهم قد نَفَقَت.

وعندما يدخل حملة المشاعل هؤلاء القاهرة وقت العصر فاليوم يوم للغبطة والفرحة فيدقون الدفوف قائلين: «الحمد لله بالسلامة» ويدخلون من باب الناصر فى صخب وضجيج حتى يصلوا إلى رئيس شطار قصر الباشا فيخلع الباشا عليه خلعة فاخرة وبمقتضى الفرمان الشريف يصبح رئيسا للمشعلجية، ويوليه رئاسة المحمل الشريف ويصبح مبعوث رسول الله ﷺ، ويرقى الجميع إلى قادة وضباط.

وإذا ما أراد أحد أن يكون من حملة المشاعل طلب الإجازة نظير قرش واحد ولكن منهم من يموت من فرط ما يبذل من جهد فى عمله، وكثير منهم لا يستطيع العودة إلى مصر ويبقون فى الطريق وهم يستوفون شهرًا بتمامه، ثم يعودون ويلبسهم الباشا الخلع ويمضون إلى أقصى المدينة ولا يتوقفون قط ويطوفون بالقاهرة وبعد الغروب يعودون إلى بيوتهم، وفى تلك الليلة يقوم خدامهم بتدليك أجسامهم بالزيت فيشعرون بالراحة ثم ينهضون ويضعون فوق رءوسهم طرة مزدانة بالجوهر ويرقصون، وهذا من عمل المهرجين، ويتأهبون لأن يكونوا رؤساء حملة المشاعل.

وفى يوم الموكب هذا يخلع عليهم الباشا خلعة أخرى ويمضى أمام المحمل الشريف كبار المشايخ وعلى وجوههم مظاهر البهجة والسرور.

ولحملة المشاعل هؤلاء مع الشيوخ مشاحنات كثيرة فى عهد إبراهيم باشا؛ فقد قال المشايخ: منذ صدور قانون السلطان بيبرس ونحن نتولى مهمة إرسال المحمل الشريف.

فقال حاملو المشاعل: إذا ما حملتم المحمل الشريف إلى الكعبة على هذا النحو لاستحال عليكم ذلك؛ بارك الله لكم أما إذا ما بلغتم به باب الناصر فحينما تجتازونه سلمونا المحمل ولينعم كل منكم بالبقاء فى القاهرة، أما نحن فسوف نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به. إن سلطان مصر جعل المحمل لأمير الحج وهو يختار من بيننا، وقد خلع علينا وكيل السلطان ونحن نتقدم موكب المحمل.

وفى آخر الأمر حكم بعض الرجال المنزهين عن الأغراض بأن يبقى جميع المشايخ والصوفية فى القاهرة. ومنحوا حملة المشاعل الجواب الشافى، وقيد ذلك فى السجلات، وأصبح ذلك حجة أكيدة فى يد حملة المشاعل وتسلموا المحمل الشريف، ومضوا به وهم يرددون قولهم هاتفين «الله ينصر السلطان» وهذا ما تنشق له مرارة الإنسان تأثرًا به.

وتقع خلفهم ضجة عالية ويسمع صوت مخيف كأنه صوت هاتف ربانى، وبينهم من ينتسبون إلى مائة وأربعين طريقة قد رفعوا آلاف الأعلام والرايات ويجتمع جميع مشايخ الصوفية وبجانبهم خلفاؤهم ونقباءهم وجاويشيتهم، ويعبرون موحدين الله، ويحيطون المحمل الشريف بآلاف من أعلامهم وهم فى جلبة وضجة كأنما الثورة قامت فى القاهرة.

أما جمل المحمل فيكون فى كسوة مزركشة يمشى متبخترا كأنه طاووس روضة الجنان ويمسح آلاف من الناس المحمل الشريف بوجوههم ومن لا يستطيع الوصول إليه يلقى عليه عمامته أو منديله يلمس بها المحمل ثم يجذبونها مرة أخرى يمسحون بها وجوههم وأعينهم تبركًا وتيمنًا.

أوصاف المحمل الشريف

المحمل الشريف هو هودج النبى ﷺ وفيه خرقته الشريفة ومسواكه وخفه وإبريق وضوئه وهذا الإبريق من الحصير المطلى بالقار من داخله ومصحف وغير ذلك من الضروريات. وكانت تركبه السَّيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ.

والآن هذا الهودج يشبه الهودج الذى كانت تركبه السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلا أن سلاطين السلف وآل عثمان جعلوه مربعًا عليه قبة من الحرير وذلك تبركًا وتيمنا.

وأعلى هذه القبة كرة ذهبية مثقوبة تحمل علمًا مذهبا. وفى أركانه الأربعة كرات ذهبية كذلك وهو بتمامه مكسو بالحرير عليه أزرار مذهبة ذات زخارف وقد كتب عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويمضى خلف المحمل الشريف جوقة موسيقية بطبولها وأبواقها وأجراسها على الجمال، وإذا ما كان هناك من علية القوم مَنْ يشاهد المحمل فى بعض الدكاكين مر كل المشايخ بالمحمل أمام الدكان الذى فيه هذا الشريف، وأبطأوا فى سيرهم حتى إذا ما واجه المشايخ هؤلاء الأشراف يتلو جميع المشايخ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**... إلى قوله: **تَسْلِيمًا**... ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويمضون ويكررون ذلك أمام دكان أى شريف يشاهدونه فيه؛ ولذلك فالمحمل الشريف منذ خروجه فى الصباح من (قره ميدان) وحتى وصوله إلى باب الناصر فى وقت العصر، ومن باب الناصر حتى العادلية وهم يوحدون الله فتصبح القاهرة نورا على نور من توحيدهم. وقبل الغروب يسلم جميع الدراويش المحمل لأمير الحج، ويودع جميع المشايخ أمير

الحج ويعود كل إلى منزله. وبأمر أمير الحج ينادى المنادون بأن المحمل سيبقى فى العادلية ثلاثة أيام لتجهيز الأمتعة.

وبهذا يبلغ الحديث عن موكب أمير الحج منتهاه.

الموكب السادس عشر

موكب وصول الخزانة من مصر إلى مكة والمدينة وخزائن وصرر شيوخ البدو على طريق الحج

منذ صدور قانون السلطان سليم وهذه الخزانة عبارة عن الصرر والعطايا والكسا والنفقات لمشايخ البدو من أهل التقوى على جانبى الطريق من القاهرة إلى مكة.

وأول هؤلاء المشايخ على الطريق من القاهرة على السويس مشايخ آل صفر وآل بنى عابد وآل بنى صالح فى جهات العقبة، وآل بنى شاهين عند بلوغ مدينة «مدين» التى بناها شعيب ـ عليه السلام ـ، وآل بنى زيد عند يَنْبُعُ البرة.

كما أن لكثير من الأعراب صررا وفى كل عام يوزعها أمير الحج بنفسه على هؤلاء المشايخ شريطة أن يحضروا المأكولات والمشروبات والجمال القوية على طريق الحجاج المسلمين الذين يتزودون منها ويقدمون لهم المدد من منزل إلى منزل ويكونوا أدلاء لهم فى الطريق فى مقابل أن يمنحهم أمير الحج الصرر والمنح.

وعلى الرغم من أنهم يقصرون فى خدمة الحجيج فى هذه الأيام إلا أنهم يتسلمون رواتبهم بالتمام. وإذا ما أنقصوهم شيئًا قطعوا الماء عن طريق الحجاج وألقوا جثث الحيوانات فى آبارهم وسدودها بإلقاء الحجارة فيها وأغاروا عليهم من جميع النواحى وخرج عليهم اللصوص من كل صوب ناهبين وسالبين أمتعة الحجاج فلا يمرون بسلام.

ولهذا السبب يخصص لهؤلاء خزانة فى ديوان مصر لصررهم ومنحهم وكسوتهم، ويسلمها كتخدا الباشا أمير الحج فى موكب عظيم من جند الباشا فى العادلية ويتسلم منه الحجة بذلك. وفى اليوم التالى:

الموكب السابع عشر

موكب خزانة الصرة ونفقات تعمير الحرمين الشريفين

وهذا كذلك قانون منذ عهد العباسيين والسلطان قايتباى، إلا أنه عندما فتح سليم خان مصر زاد من إحسانه لشريف مكة فى «صك الأمان» واعتبر صرر ومنح وكسوات ونفقات تعمير الحرمين خزانة مصرية. والواقع أن أمير الحج يقسم هذه الخزانة بنفسه على جميع الأشراف.

وإذا ما نقص منها دينار واحد ـ اللهم عافنا ـ رفع جميع الأشراف الأمر إلى السلطان قائلين: «إن صدقة السلطان سليم وأجداده العظام لم تصلنا كاملة».

وعندئذ تنهدم الدنيا فوق رأس وزير مصر.

وبعض ظرفاء الأشراف يقولون: «وصلنا خراج الترك وهو حقنا على آل عثمان» ولا يقولون إنه صدقة السلطان، بل يقولون: «نحن نتلقى خراجهم». إن فيهم أسفه السفهاء.

جملة القول أن لهؤلاء صررا ومنحا مقيدة لهم فى ديوان مصر، ويسلم كتخدا الباشا أمير الحج هذه الخزانة فى العادلية فى موكب عظيم من رجال الباشا ويأخذ منه حجة بذلك ويسجلها فى سجلات شرع رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الموكب الثامن عشر

خزانة النفقات اليومية للجند المعينين مع أمير الحج ووصولهم الأراضى المقدسة وعودتهم فى مائة يوم وعشرة أيام ومصروفات هذه الرحلة

فى قانون مصر أن بين القاهرة ومكة المكرمة ستًا وثلاثين مرحلة ويقيم الحجيج عشرين يومًا فى مكة ويمضون إلى المدينة المنورة فى عشرة أيام ويمكثون بها يومين ويعودون إلى القاهرة فى ستة وثلاثين يوما وجملة ذلك مائة يوم وأربعة أيام، مع أيام استراحتهم فالمدة مائة يوم وعشرة. أما من يشاء المجىء إلى السويس ويدخل القاهرة فى يومين يكون ذهابه إلى الأراضى المقدسة من مصر وعودته إليها فى مدة مائة يوم.

جملة القول يخصص مائة وعشرون ألف دينار من ذهب لتغطية النفقات اليومية فى كل مرحلة والتى تصل اليومية منها إلى ألف دينار حتى لا يثقل أمير الحج على الحجيج بمشقة السفر وهى خزانة كبيرة أخرى.

بيد أنه فى عهد إبراهيم باشا خفضت هذه الخزانة عشرة آلاف دينار ذهبى بحجة أنها نفقات باهظة غير معقولة، ولأنهم لم يراعوا قانون السلطان سليم، أقام حجاج مصر يومين فى المدينة ولم يستطيعوا البقاء فيها اثنى عشر يوما مثل حجاج الشام وزاروا قبر المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فى عجالة وعادوا إلى مصر.

وثمة خزانة أخرى تجهز لأمير الحج لجنده ومأكولاتهم ومشروباتهم تحمل على ألف جمل وإذا ما منح ألف وخمسمائة أصبح الحجاج المعسرون فى راحة. لأن طريق الكعبة هذا يسمى «طريق ذبح الجمال» لأن أهل البصيرة يركبونها فى( )[1] بمكة وهم يتوبون من الذهاب إلى مكة. ومن له القدرة والقوة مضى على صهوة جواده أو على النعلين.

جملة القول أن كتخدا الباشا يسلم أمير الحج ( )[2] ألف دينار من ذهب كنفقات يومية للحجيج، وذلك بموكب عظيم من جند الباشا، ويطالب كتخدا الباشا أمير الحج بالحجة لإبرازها عند الضرورة، ثم يعود إلى القاهرة.

الموكب التاسع عشر

وهو موكب خزانة الأوقاف والتى تسلم لأمير الحج

يتحصل من أوقاف جميع السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان والخيرين من العوام والخواص عدة مئات الآلاف من الدنانير الذهبية وآلاف من قطع الثياب كالسراويل والقمصان، وهذا ما لا يعلم حصره إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه هى إحدى خزانتين ترسلان من القاهرة إلى مكة. إلا أن هذه الخزانة لا ترسل فى موكب ويقتصر الأمر على أن يسلمها ناظر الأوقاف إلى أمير الحج ويتلقى منه الحجة بذلك.

وإذا ما كتبنا عن أحوال أمير الحج على حد علمنا لاقتضى ذلك منا أن نكتب مجلدًا ضخمًا.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

الفصل التاسع عشر

مواكب الجند المكلفين بالذهاب إلى الأراضى المقدسة من الأوجاقات ومظاهر عظمتهم

وفى هذا الموكب لا وجود لجند الخزانة أو لجند من أتباع الباشا. إنهم الجند المنوطون بالحج وعلى هذا يثبت الجند المنوطون بهذه المهمة من الأوجاقات السبعة ويمرون أمام الباشا.

وفى صباح اليوم الثالث لمواكب الخزانة ـ والتى سلف الحديث عن أوصافها ـ فإن هؤلاء الرجال السبعين المنتمين إلى الأوجاقات السبعة يخصص لهم مائتا رجل بأتباعهم لأن طريق الكعبة طريق مبارك فيصبح مجموعهم ألف رجل فى أتم زينة وسلاح. وهؤلاء الجند مكلفون بالذهاب بالحجيج والعودة بهم. ويحكم هؤلاء وهم ألف من صفوة الجند سبعة قادة من الأوجاقات السبعة وسبعة ممن لهم رتبة الكتخدا وسبعة من الجاويشية وسبعة من حاملى الرايات وسبعة من حاملى الطبر وسبعة من رؤساء خدم قصر الباشا وسبعة من الچورباجية. وهؤلاء يقيمون سنة فى مكة للمحافظة على الأمن فيها.

يمر هؤلاء الألف وهم من صفوة الجند كل منهم مع فرقته وأغواته وچورباجيته على مرأى من الباشا وهم مدججون بالسلاح ويتدفقون كالموج من أحد أبواب القصر ويخرجون من باب آخر زرافات ويقرع كل أغا منهم طبلة ولكن ليست لهم جوقة موسيقية عسكرية خاصة بهم ويهرع جميع القادة والچورباجية والجاويشية ومن لهم رتبة الكتخدا إلى قاعة ديوان الغورى حيث يشرفون بتلقى الخلع السلطانية ويوزع عليهم سبعون خلعة، وبعد الدعاء والثناء يلقنهم الباشا أوامره ويودعونه داعين له، ثم يلتحقون ثانية بالمواكب وخارج باب الوزير يصطف مئات الآلاف من الناس لتشييع الجند الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ويصبح موكبًا خاصًا يجل عن الوصف.

وفى هذا الموكب يأتى اثنا عشر جاويشًا من جاويشية وزير مصر بدروعهم الفضية لتجهيز هذا الموكب وهم كذلك من صفوة الجند. وهذا الموكب كغيره من المواكب لا يمضى فيه الأثرياء من الأعيان إلا باختيارهم.

ولكن رعاية للحجاج يركب السادة والفقراء جميعًا ويكون موكبًا مزينًا يجل عن الوصف. وفى هذا الموكب يعبر الجنود أفواجًا أفواجًا بالخيول العربية الأصيلة والإبل والنوق المزينة بالقطع التى لها ألوان طاووسية.

ويعرف من هذا أن هؤلاء هم جنود الحج. ويكون أمير الحج قد ذهب مقدمًا ومعه ستة قطع من المدافع، وذلك لعدم وجود مدافع فى هذا الموكب، وتمر هذه الطائفة من الجنود من مصر وهم يطلقون الأعيرة النارية ويهللون ويكبرون ابتهاجًا وسرورًا ومن شدة ازدحام الجند لا يستطيع أى رجل أن يخطو خطوة فى طريق موكب الحج. ويصل هؤلاء الجند على هذا النسق إلى العادلية ويضعون خزينة الصرة ويضربون خيامهم، ويودعون الباقين فى مصر ثم يبقى منهم من يبقى ويسير من يسير، وحينئذ يقوم أمير الحج بإرسال الصرة إلى بركة (الحج) ثم يرتحل هو فى اليوم التالى، حيث يصل هو وجملة حجاج المسلمين إلى البركة بعد أربع ساعات ويمكثون هناك.

الفصل العشرون

فى بيان الموكب البهيج لجند أزلم وخزائنهم ومصاريفهم

عندما يتجه الحجاج المسلمون من مكة إلى مصر، يتم تعيين سبع فرق من جنود المسلمين لإمداد حجاج مصر فى تلك الناحية، وتعد قلعة أزلم بمثابة نصف الطريق بين مكة المكرمة ومصر (القاهرة). وهو عبارة عن ثمانية عشر منزلاً، ويذهب جملة جنودها إلى أزلم، والقلعة من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمه الله، لها خيرات عظيمة يعجز اللسان عن وصفها. و يُكلف الباشا أحد الأمراء الشراكسة فى مصر بالسفر إلى أزلم ويخلع عليه خلعة ويختار ثلاثمائة من الجنود المنتخبين من كل فرقة من فرق مصر السبع، وليس لهؤلاء الجند درجات للترقى، حيث إنهم يُسَخّرون لأداء هذه الرحلة. ويتم صرف أربعين كيسًا من المال السلطانى لطعامهم وشرابهم وحمايتهم وخيامهم ومعسكرهم. ويُعطى للمائتى ألف جندى ألف رأس من الإبل لنقل متاعهم وأغراضهم الثقيلة. ويقوم أغا الحسبة بتجهيز الإبل بالمؤنة اللازمة وتحسب كافة مصاريفها على نفقته. ومؤنتهم هى البقسماط والجبن الحلوم والعسل والزيت والقهوة والأرز والفول والشعير وغيرها من المؤن.

ويُعين معهم ستة مدافع سلطانية، وفرقة من المدفعية ورئيس فرقة الذخيرة وفرقة من سائقى عربات المدافع، وبذلك يكون جملة المكلفين بتلك الرحلة خمسة آلاف رجل مسلح مع خدامهم، وخمسة آلاف تاجر وهؤلاء يذهبون مسلحين لأنه يوجد مضيق ضيق ومخيف غاية فى الخطورة يُطلقون عليه مضيق العقبة.

وذات مرة قام العربان بحصار جند أزلم هناك وقُتل منهم بأسنة الرماح عدة مئات ويذهب هؤلاء الجنود فى تمام التسلح والانضباط حيث يجلبون الأموال الزائدة، وفى حالة عدم وصول هؤلاء الجند إلى الحجاج. فمن المؤكد أن الحجاج لن يصلوا إلى مصر بأمن وسلام. هذا بالإضافة إلى أن التجار يجلبون ألفين أو ثلاثة آلاف حمل بعير من الفول والشعير والبقسماط والزيت والعسل والأرز والدقيق، بل حتى لبن العصفور يأتون به معهم، كما يجلبون معهم مائة جمل محمل بمياه النيل كهدايا.

ويرسل كل شخص إلى أصدقائه عدة آلاف علبة من سكر النبات والحلويات والزلابية والزبادى. لذلك يعتبر لقاء الحجاج بجنود «أزلم» كعودة الروح إلى الجسد الهامد نظرًا لأن جملتهم يكونوا منهكين وضعفاء، وفيهم المرضى والعجزة من عناء السفر، وإبلهم وخدمهم منهكين أيضًا.

وعندما يقوم الأشخاص بإعلام الباشا الوالى بفائدة الجند فى الرحلة للحجاج. يتم التنبيه على كافة التجار والجمالين وكان يُهتم غاية الاهتمام بزيادة عدد الجند.

وعندما صدر الفرمان بخروج هؤلاء الجنود المكلفين بالخروج للرحلة، خرج الموكب فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة إلى القصر وهو موكب يتكون من خمسة آلاف جندى من الجند المنتقاة. ويخرجون فى حضرة الباشا الوالى فرقة فرقة وهم يعزفون ويبتهلون، ثم يحضر سبعون سردارًا وكتخدا وجملة أصحاب المناصب العليا فى حضرة الباشا الوالى، الذى ينعم عليهم بالخلع السلطانية ويوصيهم باحترام الحجاج المسلمين، ثم يخرج الموكب من القصر على دقات الطبول، ثم تجتمع كل فرقة مع كافة الجنود ويُطلق عليهم حينئذ «موكب الفرح».

ويخرج الموكب العظيم جماعات جماعات من مصر بين مئات الألوف من الرجال يشاهدونهم ويدعون لهم بالخير قائلين: «ينصركم الله يا عساكر الفرح» وعندما يصل الموكب إلى الحجاج يطلقون عليه «موكب الفرح» لأنه به أفراح وتُعزف الموسيقى أثناء مشاهدة الأهالى له، وتُطلق البنادق، وتنطلق الأدعية المحمدية للموكب، ثم يخرج الموكب من باب النصر، ويمكث فى العادلية ثلاثة أيام، ويأتى آلاف التجار بأمتعة كثيرة ويظلون هناك، وفى اليوم الثالث فى وقت الشفق تُطلق قذائف المدفعية ويُنفخ فى البوق، وتُعزف الموسيقى، ويصل الموكب فى الساعة الرابعة إلى منزل البركة. ويمكثون هناك ثلاثة أيام، وبعظمة الله يأتى سبعة آلاف أو ثمانية ألف حمل بعير محملة بالمأكولات والمشروبات من الشرقية والقليوبية والبحيرة ودمياط ورشيد، وحينئذ يقوم «حاكم أزلم» بإطلاق قذائف المدفعية، ثم يقطعون المنازل ويطوون المراحل حتى يصلوا فى اليوم العاشر إلى قلعة العقبة ويمكثون هناك لمدة يوم، ويقومون بتحميل كافة الإبل بالمياه، وعندما يدخلون إلى صحراء قلعة «أزلم» فى اليوم الثامن تنطلق قذائف المدافع وطلقات البنادق المتتالية، ويقوم التجار والجنود بنصب خيامهم فى مكان يبعد ساعة عن القلعة ويقوم كل شخص بإخراج ما معه من متاع وينشره على جانبى طريق الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى يخرج أمير أزلم مع ثلاثة آلاف جندى وأغا أزلم مع ثلاثمائة جندى لاستقبال الحجاج، وفى وقت المساء يفد حجاج البحر أيضًا ويسلمون على أمير الحج. وبمجرد وصول الموكب العظيم إلى قلعة أزلم تنطلق طلقات المدافع، وبعد ذلك يمكث كافة الحجاج فى صحراء أزلم يجددون نشاطهم، حيث يمكثون هناك ثلاثة أيام ويتركون إبلهم المنهكة المتعبة ويؤجرون رواحل جديدة بدلا منها.

ويشترى كل شخص كافة الأمتعة وقطعان الإبل الصغيرة، ولكن يتعرض الحجاج والجنود المنهكين المتعبين لقطاعى الطرق واللصوص والنشالين الماهرين فى السرقة مما يجعل هؤلاء الحجاج وهؤلاء الجنود يتعرضون لمشقة فى هذا الطريق. حيث يقوم هؤلاء

اللصوص بنهب أموالهم والإغارة عليهم ليلاً ونهارًا مثلما قام هؤلاء الملاعين بقتل جان بولاد أوغلو وقره يازيجى وسعيد عرب، فيكون هؤلاء اللصوص بمثابة من ألقى الذئب الجائع إلى القطيع، ولم يقم ابن رشيد بقتل الحجاج فى طريق الشام فى عهد قره على باشا، ويحتاج الحجاج الغافلون فى أزلم إلى النقود الحمراء، أما العقلاء منهم فهم على بصيرة، ولما كانوا أصحاب حوائج، لذا يجب أن ينتبه الحجاج غاية الانتباه فى أزلم.

وفى السنة الماضية قام هؤلاء اللصوص بسرقة سرج أمير الحج من على جواده، ووجد خدام الأمير السرج فى منزل شخص يسمى نواطر واكتشفوا أنه ليس سرج الأمير المسروق بل يشبهه تمامًا فقاموا بأخذه ووضعه مكان سرج الأمير من خوفهم، وتستروا على الموضوع، ويوجد لصوص بهذه المهارة كثيرين جدًا، لذا يلزم الاحتياط جدًا، ويذهب رجال من الفرقة السابعة مع الهجانة للإخبار ببشارة الحجاج القادمين إلى مصر ويخبرون بمن مات ومن هو على قيد الحياة، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فى أزلم يقطع الحجاج المنازل فى طريقهم إلى مصر.

الفصل الواحد والعشرون

فى بيان موكب العقبة ومصاريف الجنود والخزينة

يتم تعيين ألف جندى من الفرقة السابقة، ويُعين أيضًا أحد الضباط الكشافين والمتفرقة المعزولين مع ثلاثمائة جندى كقائد عام على العقبة، ويكون عددهم جميعًا ألفى جندى ولكن ليس لهم درجات ترقى، ويؤدى القائد العام خدمته فى مقابل منحه عند عودته درجة كاشف أو أغا وذلك عند وصول الحجاج بسلام، ويعطى للحجاج ألف بعير للإمداد وألف بعير أخرى للمؤن لزوم الطعام والشراب، ويُعطى أيضًا ستة مدافع وغرفة من الذخيرة والمدفعية وغرفة من سائقى عربات المدافع، وكافة المؤن اللازمة. كما يُعطى لهم عشرة قناطير من البارود الأسود، وأربعين كيسًا من النقود المصرية، ويخرج جنود العقبة من مصر فى نفس الوقت الذى يصل فيه الحجاج المسلمون إلى قلعة أزلم، ويتقابل الحجاج معهم فى قلعة العقبة.

وبعد ذلك أى فى اليوم العشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندى بلا سلاح من إحدى أبواب قصر الباشا الوالى فى القلعة، وعند مسير الموكب من أمام الباشا الوالى يقوم سبعون رجلاً من الأغوات والأمناء والجاويشية بارتداء الخلع الفاخرة، ويحصلون على الدعاء من الوالى ويخرج الموكب من القلعة ويخرج مع الموكب من جاءوا للمشاهدة من المصريين ويخرجون جميعًا من باب مصر، ويمكثون ثلاثة أيام فى العادلية، ويأتى إلى هناك أيضًا من البلدان المجاورة خمسة أو ستة آلاف ناقة وبغل وحمار، وستة آلاف أو سبعة آلاف تاجر بلا سلاح يجلبون معهم الطعام والشراب، وعلى الفور يرسل أعيان مصر مع مماليكهم ثلاثة آلاف حمل بعير من مياه النيل، وذلك لعدم وجود مياه فى صحراء العقبة بدءًا من العقبة وحتى منازل ثنيات عجرود، وتكون جملة أحمال التجار من غلال الشعير والفول والسكر والعسل والزيت، كما يجلبون إبلاً زائدة عن العدد ليست محملة بشىء، ومهما كان فى مصر من حمالين وإبل فإنها تخرج كلها عن بكرة أبيها فى تلك الرحلة، ثم بعد ذلك يقوم أمير العقبة بإطلاق المدافع من العادلية، والحكمة من الذهاب إلى العقبة أنه فى شهر المحرم عام ١٠٨٩هـ، عندما كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر، وصل أمير العقبة بكم هائل من الخزائن إلى مضيق العقبة، فجاء من ناحية الشام حثالة مقاتلى بنى زهد وبنى رشيد وآل عمور، وتحاربوا مع جند القلعة وكانت حربًا عظيمة، وأطلقت المدفعية قذائف متتالية وقتل من العربان العرايا مائة شخص واحتل العربان مضيق العقبة ومكثوا فيه فما كان من أمير العقبة إلا أن تصرف بحكمة، حيث عاد من العقبة ومكث فيِ واد منبت مياهه وفيرة وأقام المخافر على الطرق البرية للجهات الأربعة للمكان وبعد ثلاث أيام بلياليها وصل الخبر إلى حضرة عبد الرحمن باشا بأنه قد حل العقاب الأليم برءوسنا فى العقبة، فقام بجمع الديوان السلطانى، وتحير أعضاء الديوان من حكمة الخالق فى هذا، وقال الوزير صاحب الدولة إن حال الحجاج دائمًا ما سيكون مضطربًا فى العقبة إذا لم يَأْتِ لهم أمير العقبة بمدد.

وعلى الفور استدعى الوالى عامل الخزينة وأمره بأن يصرف لهم أربعين كيس من النقود المصرية على سبيل المحبة، وأخبر بذلك جاويشية الموكب وسائر العربان والفرقة السابعة، وعلى الفور يقام اللواء الأبيض المحمدى فى فناء قصر الباشا الوالى، وفى اليوم التالى فى وقت العصر يمر الموكب من أمام قصر الباشا وهو موكب مكمل مزين يتكون من خمسمائة جندى منتخبين، فيقوم الباشا الوالى بإلباسهم الخلع الفاخرة لابتهاجه وصفائه من الموكب ويُعلّق على رءوسهم الطرة السلطانية، ويعبر الموكب من مصر ثم يمكثون فى العادلية حتى الصباح، ثم يخرج إلى العادلية ألف ومائة أو مائتين شاب ممن يقولون نحن لها، ويصل بعدهم ثلاثة مدافع شاهانية وتضرب طلقات المدافع إعلامًا بوصولهم، ثم يصل ألفا رجل من الجنود المهاجمين إلى العقبة فى خلال أربعة أيام وليال، ويأتى جملتهم فى مكان ما، ثم ينتشر الجنود المشاة على الجبال والأحجار، وعندما يرى العربان الأمر على هذا النحو يلوذون بالفرار بناء على المقولة التى تقول «فرارًا على توالى الكثرة» لا سيما بعد وصول الجنود البحرية أيضًا، وبذلك يستطيع جملة جند المسلمين أن يتخطوا العقبة ويتقابلوا مع الحجاج المسلمين فى الناحية الأخرى، غير أنهم يكونون فى غاية التعب.

وعندما يرى الحجاج الجنود فى العقبة فإن هذا يكون بمثابة تجديد الروح لهم، ثم بعد ذلك تُرسل البشارة مع مبشرى الجبل إلى الباشا الوالى بسلامة وصول الحجاج، حيث يصل حاملوا البشرى إلى الباشا فى اليوم الرابع من خروجهم، وعندما يعلم الوالى بهذا يبتهج ويمنح حاملوا البشرى كل واحد منهم خمس أقجات ويهبهم الخلعة والصرة.

ثم يقوم الحجاج المسلمون بتبديل الإبل التى بقيت فى العقبة، وبذلك يغتنمون أقوات الدواب والأموال المصرية، ويتجه الحجاج بعد ذلك إلى مصر فى تأن وتؤدة وبينما هم فى الطريق يطلب أعضاء الديوان صدور الفرمان الذى يجيز لهم الخروج لاستقبال موكب الحج، وفى تلك الأوقات تبقى ستة أكياس من الأموال المصروفة إلى الباشا.

فصل فى المواكب المتفرقة

يخرج كل أغا من أغوات الفرق السبع بخيامه ومؤنته فى موكب يدقون الطبول، وينصبون الخيام فى الأودية والأراضى الفضاء الواقعة من باب النصر وحتى البركة ويمكثون هناك فى بادئ الأمر يمكثون فى قصر شاد بك لتحصيل الجمرك، ثم يمكث بعدهم كتخدا (أمين) الجنود العزب فى الطوبخانه ويمكث أغا التوفكجية (حاملى البنادق) فى سبيل علام ويمكث أغا المتطوعين فى مصطبة أبو جاموس ويمكث أغا صانعى البنادق فى سبيل محمد أغا ويمكث أغا الشركس فى مصطبة ( )[1] ويمكث رئيس المتفرقة وكتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس الديوان فى البركة ينتظرون جميعًا قدوم موكب الحجاج، إلا أن لواء الإنكشارية يمكث فى الأرض الصحراء البعيدة عن البركة فى خمسمائة أو ستمائة خيمة.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

obeikandl.com

الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم موكب أمير الحج من الكعبة إلى منزل البركة وقضائه تلك الليلة هناك

فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر تبدأ مسيرة طليعة الحجاج ولما يصل أمير الحج بالمحمل إلى موضع يسمى دار الحمراء، ينقل الخبر إلى كتخدا الباشا فى بركة الحج.

فصل فى بيان محلة الأكواب الشهيرة عظيمة الخيرات

يمكث أغا تحصيل الخراج فى مكان يسمى الأكواب بسبعين أو ثمانين خيمة من الجنود المتطوعة، وذلك قبل ورود موكب الحج بثلاثة أيام، وبالرغم من أن مصر يوجد بها ألف سقاء ماء ممن يشتغلون بالسقى على الإبل والحُمر، إلا أنهم جميعًا يأتون مع أغا تحصيل الخراج، ويقومون بملئ الأحواض والصهاريج والأكواب وأسبلة الخير التى أنشأها الوزراء، ثم يقومون بنقل هؤلاء الحجاج الضعفاء المنهكين من عناء السفر على تلك الإبل والجياد من البركة ويقف جند الوالى من التتار والشباب المتطوع وجنود المتفرقة على طريق الحجاج، ويقدمون ماء النيل لهؤلاء الحجاج العطشى، ويجتمع الحجاج الجوعى على مائة حمل جمل من الخبز وألف حمل جمل من الألبسة وألف قميص ومائة شاه، ويدفعون عطشهم بشربهم ماء الرحمة. ويقدمون الألبسة لكافة الحجاج العرايا، ويدعون لهم بالخير.

ويوجد لأعيان مصر ألف جمل محملة بالمياه، وإذا حدث ولم تُرسل تلك المياه فى هذا اليوم مع أغا تحصيل الخراج، فإن معظم الحجاج سيصاب بمرض الحكة، وتلك الأيام تعتبر فى حكم مسئولية ومهمة كاشف قليوب، حيث أنه مكلف بحفظ وحراسة الحجاج لمدة ثلاثة أيام بلياليها فى دار الحمرا على طريق الحج، حيث تقوم فرقتان من العربان كل فرقة قوامها مائتى جندى بحماية الحجاج من أولهم لآخرهم، أما بقية الحجاج الآخرين الضعفاء الذين بقوا فى الطريق فقد يتعرضون لنهب أشقياء العربان. هذا بالإضافة إلى أن أى ضرر يصيب الحجاج فى تلك الأيام يكون مسئولية كاشف قليوب، وذلك لأن تلك النواحى تعد حدود المنطقة.

ويقوم الكاشف بانتظار النوبة كل ليلة فى خيمة أغا تحصيل الخراج، وعلى هذا يُطعم العامة من مال الباشا لمدة ثلاثة أيام، ويعطى لهم الثياب والسراويل والقمصان، ويتم حفظ الأماكن التى يستقر بها كل الأمراء وكل أغوات الأوجاقات ويسير الحجاج على ذلك فى موكب بهيج، والبعض يدعو الحجاج إلى خيامهم ويضيفونهم، وينشر كل أغا سبعة أو ثمانية أكواب من المياه أمام خيمته ويقومون كل ليلة بإضاءة ألف خيمة بمائة ألف قنديل، ويصل صدى صوت طلقات المدافع والبنادق إلى صحراء سبيل العلام، ويقوم أمير العبيد الموجود فى سبيل العلام بصرف مصاريف كثيرة، حيث يقوم بحراسة الحجاج لمدة ثلاث ليال، ويُعد استقبال الحجاج ثلاثة أيام ولياليها بمثابة الثواب، لما فيه من العيش والعشرة والمتعة والصفاء، وهذا هو ما يتردد على ألسنة الناس.

كما أنه عالم مختلف ويقول أهل مصر عن هذا الاستقبال العربى «جند حجاج الصفا» وفى المكان الذى سيصل فيه أمير الحج فى البركة، ينتظر أمين الديوان بعد استئذانه من الباشا الوالى، ثم يقوم أمين الديوان باستدعاء أغا العزب فى المطبخ السلطانى ليتناول ضيافته، ثم يستدعى بعده أغا السباهيه أى (الفرسان) ثم أغا المتطوعين ثم أغا التوفكجيه، ويأكل الجميع من هذا الطعام، ويحصل كل واحد منهم على جواد عربى أصيل، ويصلون إلى خيامهم فى البركة، وعند منتصف الليل يمتطى جميعهم الجياد ويسيرون مع ألف من أعيان مصر بألف شعلة، ويمتطى أمين الوالى وأمين الديوان ورئيس المتفرقة وأمين الجاويشية وسائر الأغوات والباشوات الجياد وتصبح ظلمة الليل ضياء منيراً بفضل مشاعلهم، وعلى هذا الحال يسير الباشاوات حتى ظهور راية أمير الحج وظهور المحمل الشريف عند مصطبة الأغا وتدق الطبول لقدومهم ويتقابل كافة الأعيان مع الأشراف فيتبادلون التهنئة ويتعانقون ويقبل بعضهم بعضاً ويرفع الآذان المحمدى، وبعد أداء صلاة الفجر يتناولون القهوة ثم يمتطون الجياد.

ويتقابلون مع جملة المشتاقين الذين خرجوا لاستقبالهم، ويظلون هكذا حتى يصلوا إلى البركة فى موكب عظيم، ويتناولون مائدة عظيمة، ويقوم أمين الباشا الوالى بإهداء أمير الحج جواداً مزيناً مكملاً ويمتطى أمير الحج الفرس ويذهب إلى خيمته، ويأخذ على أغا كتخدا عبد الرحمن باشا بجواده المزين إلى مصطبة الأغا حيث يمتطى أمير الحج هذا الجواد وعندما يصل إلى البركة ينزل فى خيمته، ولا يقوم كتخدا الباشا الوالى بضيافته،

بل يضيّفه «نيشلى» على فى ضيافة عظيمة، ويذهبون بعد ذلك إلى مصر مع موكب الباشا الوالى، ويظل الباشا أمير الحج فى البركة تلك الليلة، وتنطلق المدافع والبنادق العظيمة ابتهاجًا وسرورًا، حتى حجاج القصبات الأخرى يظلون فى البركة فى تلك الليلة.

وفى اليوم الخامس والسادس والسابع من شهر صفر يدخل حجاج مصر وسائر حجاج الديار الأخرى إلى مصر. وبذلك تكون جملة رحلاتهم مائة وعشرة يوم، ويقوم أحد أمناء إبراهيم باشا بالذهاب إلى مكة فى أربعة عشر يوم ويلحق بالحجاج وهم على جبل عرفات ويحج معهم، ويأخذ الرسائل من شريف مكة ويقوم بالسعى والطواف فى مكة، وفى اليوم التالى أى فى اليوم الخامس عشر من رحلته يعزم الخروج إلى مصر ويصلها بعد أربعة عشر يومًا وبذلك يكون الإياب والذهاب مع الحج فى مقدار شهر. وهذا يعنى أن الحج من مصر قريب وآمن، ويقضى أمير الحج ليلته فى البركة، وتنصب الموائد العظيمة للأعيان والأغوات وأغوات البلوك وكتخذا الجاويشية الذين خرجوا لاستقبال الحجاج، وتنطلق فى تلك الليلة طلقات المدافع والبنادق ابتهاجًا وفرحًا، وفى صباح اليوم التالى يأخذ أمير الحج المحمل الشريف ويتقدمه أعيان مصر الخارجون لاستقباله ويمرون على خيام أغوات الفرقة السابقة المقامة على الطريق، ويسلم الحجاج على كافة الأغوات ويعبرون وعندما يكونون بالقرب من باب النصر يظهر موكب عبد الرحمن باشا، فيتركون الموكب ويمتطون الجياد، وعندما يصلون إلى المحمل الشريف ينزلون من على الجياد، ويسيرون مسافة أربعين أو خمسين خطوة حتى يصلوا إليه ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وتُعزف الموسيقى العسكرية ثم يقوم عبد الرحمن باشا بإهداء الباشا أمير الحج الخلعة الفاخرة من فرو السمور. فيقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ويستقر الباشا فى العادلية، ويصلون جميعًا إلى باب النصر، ويقضى أمير الحج ليلته ضيفًا فى جامع جان بولاد، ويسهرون الليل حتى الصباح، وهم يتلون المولد الشريف، وهذا المولد الشريف الذى يتلونه هو أول مولد يُتلى فى مصر، ثم مولد الشيخ البكرى والشيخ الكلشنى ومولد السادات، وستحرر تلك الموالد فى موضعها،

ولكن فى مولد جان بولاد هذا يقوم أمير الحج بإعطاء ألف قرش للعلماء فى نظير تلاوتهم للمولد، وفى صباح اليوم التالى وهو اليوم السابع من شهر صفر تمتلئ أسواق مصر بالأهالى، حيث ينتظرون قدوم أمير الحج من الحج الشريف.

(تابع) الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم أمير الحج من الحج

هذا الموكب أحد مواكب العيدين فى مصر، ويُذكر هذا الموكب عندما تذهب النساء لمشاهدة الموكب، وتُؤجر الحوانيت الواقعة على الطريق العام الذى سيسير فيه الموكب قبلها بشهر، حيث يقوم كافة الأهالى حتى الفقراء منهم للخروج لاستقبال الحجاج نظرًا لأن العلماء والمشايخ والصلحاء والأئمة والخطباء الذين يُعدون بمئات الآلاف فى أقاليم مصر السبعة يعتبرون الخروج لاستقبال الحجاج فرضًا، من هنا يخرج كل الأهالى وينتشرون فى الحوانيت والأسواق والطرق، ويخرج المشايخ والفقراء برياتهم وسناجقهم لاستقبال الحجاج، ولا يخرج جنود الإنكشارية وجنود العزب فى هذا الموكب، ويمر فى بداية هذا الموكب أمير الحج ثم لواء التفكجية وبعدهم المتطوعة ثم الشراكسة ثم الجاويشية. ثم جنود المتفرقة. ثم يمر بعدهم أغوات خمس فرق عسكرية على دقات الطبول، ثم يمر بعدهم أمير الحج بالجنود الذين احترقت وجوههم وعيونهم من شدة الحر، ثم يمر بعدهم مائتين وخمسين جنديًا إنكشاريًا، يعلقون السيوف على خصورهم والدلايات على رءوسهم، ومعهم الجند المعروفون بالجند الملازمين لجنود الإنكشارية، ثم يمر من بعدهم كافة أمراء مصر من الشراكسة على الموسيقى العسكرية، ويكون الأغوات حينئذ بلا سلاح ومزينين، ثم يأتى من بعدهم إحتياطيو الباشا أمير الحج. وبعدهم طائفة الشطار ويكون المحمل الشريف أمام أمير الحج. ويدخل أمير الحج من باب النصر بالموكب العظيم على دقات الطبول وصيحات التهليل، ويعبرون فى حضور كافة أهل مصر. ويقوم أمير الحج بسحب الجواد فى الميدان فى حضور جملة الأمراء والكرام وأعيان الديوان ذوى الاحترام، وينزل الباشا الوالى بالجنود من القصر، وعندما يصل الباشا إلى باب القصر يقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ثم يسلم المحمل إلى يد الباشا الوالى، حيث يقوم الباشا الوالى بالدوران والسير ثلاث مرات بالمحمل ويُدون فى

السجل الرسمى أن المحمل الشريف تم تسليمه إلى الباشا الوالى ثم يقوم الوالى بتسليم المحمل إلى الكتخدا، ويقوم الكتخدا مع جنود الوالى بنقل المحمل فى موكب مزين من باب العزب إلى باب الوزير.

وتبرك ناقة المحمل أمام باب القلعة ويتم تسليمه إلى ناظر الكسوة حيث يقوم النساجون بحفظه حتى السنة التالية، أما جمل المحمل فيُنقل إلى بلاد الريف على يد الأميراخور[1] ليرعى هناك مع بقية الإبل الأميرية حتى السنة المقبلة. ثم يذهب كتخدا الباشا بعد ذلك إلى خيمة الوالى فى قره ميدان ويقوم الأهالى بالدعاء بالخير لأمير الحج، ويُعطى أمير الحج خلعتين فاخرتين فيقوم أمير الحج بتقبيلهم ويجلس فى المركز، ثم يُمنح قادة الفرقة السابقة والجاويشية، والحاصل أنه تُقَدم الخلع إلى سبعين أغا من أغوات الأوجاقات ويذهبون كلهم إلى منازلهم ما عدا أمير الحج، ثم يقوم أمير الحج باطلاع الباشا الوالى على رسائل أهالى مكة والمدينة واليمن وشيخ الحرم المدنى وشيخ الحرم المكى وأشراف مكة، وتتم قراءة تلك الرسائل فى ديوان الأوطاق فى قره ميدان، ثم يقوم الدفتردار والروزنامجى بكتابتها فى السجل الرسمى.

ويصدر الفرمان بأن يقوم أمير الحج بعرض الحساب على الوالى الباشا ويكون ذلك فى حضور جملة أرباب الديوان، ويوفى أمير الحج حقه فإذا كان له شىء يأخذه، وإذا كان عليه شىء يدفعه، وبعدها يستأذن أمير الحج فى الذهاب إلى بيته، ويذهب معه لتوصيله جملة أغوات الباشا الوالى حيث يكون كتخدا البوابين قائدًا عليهم، فيكون موكبًا عظيمًا مع أمير الحج ويعطى أمير الحج للجنود الذين أتوا معه إلى بيته كيسًا من النقود ويعطى الجنود الملازمين لهم مائة قرش، وبذلك يخلو باله ويستريح، وفى صباح اليوم التالى يقوم أمير الحج كما هو معهود فى قانون التشريفات بتقديم الهدايا للكتخدا وإلى أصحاب المراتب الإثنى عشر وهى عبارة عن عشرة أكياس من الهدايا الهندية القيمة، وعشرين شمعة من العنبر وصرة مسك وعنبر وعشرين أوقية من العود التوتى، والبنزهير وعشرة قرون زبادى حلبى وعشرة طواشى حبشية وعشرة حسان حجازية وكيس

(١) الأميراخور: أمير الإصطبل.

من الهدايا، وسنحرر ذلك فى فصل التشريفات بمشيئة الله، وتأتى هدايا أخرى من أغوات البلوك السابع، والحاصل أن الهدايا التى تأتى من الحجاج تصل فى جملتها إلى عشرين ألف قرش، وتأتى هدايا أخرى تقدر بعشرة آلاف قرش من أشراف وأعيان مكة والمدينة ومن أمير جدة وتقدر كلها بعشرة أكياس، هذا ويحتاج وزراء مصر إلى كل تلك الهدايا، وتكون جملة الصرر والهدايا فى يد وزير مصر، لذا يلزم أن يكون وزير مصر من المشاهير، ومن هنا يكون الموكب قد بلغ تمامه بدخول أمير الحج مصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان موكب خزينة الصقر

يذكر قانون السلطان سليم فى مصر بأنه على الباشا الوالى أن يقوم بإهداء الخلعة الفاخرة لأحد الأمراء الشراكسة أو أحد الكشافين، وذلك مقابل أن يجعله موظفًا ومسئولا عن خزينة الصقور التابعة لخزينة مصر العمومية، ويكون تحت إمرته سبعمائة رجل من مُربى الصقور، وجملة هؤلاء معافون من الضرائب، وذلك لأن اصطيادهم تلك الصقور والنسور إنما يكون فى الأماكن الوعرة الخطيرة، وبعد اصطيادهم يقوموا بتسليمها إلى رئيس خزينة الصقور، ولا يخفى علينا أن صيد الصقور إنما يكون فى الجبال الشاهقة الارتفاع، ويمكننا القول بأنهم فى تلك المهمة يكونوا قد التحموا بالسماء، ولا يوجد بمصر غابات وجبال شاهقة لذا لا توجد تلك المهنة فى مصر.

ولو جُلبت الصقور إلى مصر فإنها لن تعيش فيها لأنها طيور تعيش على التحليق والرعى ولا يكون هذا إلا فى الغابات لأن مصر بلدًا ساحلية لا تقف الصقور المهاجرة بها.

كما أن الإنسان يعيش بلا كدر ∴ فإن الصقر لن يقف فى ضرر

ومضمون البيت أن مصر لا توجد بها صقور، وأن موسم الربيع الذى يأتى منه صيادى الطيور للتدريب عند قناطر الغورى، يكون هذا الوقت هو وقت موسم الصيف بالنسبة للصقور المهاجرة، وتتم ترقية هؤلاء المدربين من البلوك السابع، حيث يتم تدريب كل مائة على حده ويكون منهم مائة شخص فقط تابعين لرئيس صيادى

الصقور، أما السبعمائة الآخرين فيكونوا رؤساء على صيادى الصقور العرب. وجملتهم ألفى رجل، وتمر مواكبهم فى حضرة الباشا الوالى ويكون عبورهم بلا سلاح. حيث يعبر صائد الصقور العربى راكبًا على حمار وفوق رأسه صقر وعلى ذراعه صقر وعلى يده صقر ويخرج منهم على هذا المنوال سبعة عشر شخص، وفى هذا الموكب يُمنح رئيس صيادى الصقور والكتخدا وعشرة أغوات الخلع الفاخرة. ويلاحظ أن الموسيقى العسكرية لا تعزف فى هذا الموكب نظرًا لأن رئيس صيادى الصقور ليس بأمير، ولكن تُدق الطبول فقط أثناء عبوره، ويمكث هذا الموكب فى العادلية ولا يوجد به جنود لذا لا يعد موكبًا عظيمًا، إلا أن كافة مصاريفه تعرض على الخزينة. وذلك لأن مأكل ومشرب وملبس ودواب هذا الموكب وكافة مصاريفهم تُعد خزينة بنفسها، ويقوم هذا الموكب بقطع المراحل وطى المنازل من هناك حتى يصلوا إلى دار السعادة، ويُعرضون على الصدر الأعظم والسلطان صاحب السعادة، ويمر الموكب فى حضور الأمير ويتم تسليم كافة الصقور إلى رئيس مربى الصقور، ويُمنح الخلعة السلطانية، ويقوم بتسليم الأمراء بعض الصقور كهدايا لهم، وعندما تحوز خزينة صيادى الصقور رضا السلطان يأمر أحد الخاصكية أو أحد القابجى باشى بتصفيتها، ثم يأخذ السلطان الخبر بأنه لا يوجد بها شىء، ويعود جملتهم إلى مصر، وينالون الترقيات والتى يستحقونها من الباشا الوالى.

الفصل الرابع والعشرون

فى بيان موكب قدوم البنطال والسيف والقفطان إلى وزير مصر

يقوم الجنود بتفتيش خزينة الصقور بناءًا على الأمر السلطانى الذى يأخذوه وما يجدوه بها يقوموا بتصفيته، إلا السيف والقفطان والبنطال، فيسمح السلطان بإرسالهم إلى وزيره فى مصر. حيث يقوم خمسة عشر رجل بقطع المسافات وطى المراحل فى طريقهم إلى مصر وعندما يصلون إلى بلبيس يقوم رجل منهم بالتوجه إلى كتخدا الوالى، حيث يأمر الوالى بتجهيز المطبخ خانه فى العادلية، وفى صباح اليوم التالى يغادرون كلهم ويعبرون من مصر مع كتخدا الوالى الباشا ولا يوجد فى هذا الموكب سوى جاويشية الديوان وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغا الترجمة وبالرغم من ذلك يكون موكبًا فخمًا، ويسيرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى العادلية ويتناولون طعامهم ثم يمتطون جيادهم ويسيرون فى موكب ويدخلوا من باب النصر برفقة الأغا وكتخدا الوالى. ويكون عبورهم على موسيقى المهتر والموسيقى العسكرية البسيطة وهم يرددون «الله ينصر السلطان» ويتسلم الباشا الوالى الرسالة الموجودة مع الأغا ويقبلها ويضعها فوق رأسه ثم يعطيها لرئيس الديوان ليقرأها، وبعد معرفة ما فيها يقوم الأغا بإهداء الباشا الوالى الخلعة السلطانية والبنطال القطيفة الخاص بصائد الصقر الأحمر ويتمنطق بالسيف، وتخلع الخلع الفاخرة على سبعين شخص من أغوات الفرق السبع وجاويشية الديوان كما هو متبع فى قانون مصر، ويدعون للباشا بطول العمر وبهذا يبتهج الجميع وتأتى الموسيقى العسكرية إلى القلعة وتعزف بشكل جميل، ثم بعد ذلك يُحصلون الأموال ويُعطى عشرة أكياس للأغا القادم مع الموكب ثم يعودون بالغنائم إلى دار السعادة.

الفصل الخامس والعشرون

فى بيان دخول قاضى مصر وموكب العلماء

من المؤكد أن قضاة مصر يُعزلون عند وظائفهم وهم فى الستين من عمرهم ويخرج لهم موكب أيضًا، حيث أنهم عندما يصلوا إلى المكان القريب من مصر والمسمى الخانكة

يقوم وكيل الخراج بإرسال المطبخ إلى العادلية، وفى اليوم التالى يخرج إلى العادلية كتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين وكافة جنود الوالى والعلماء والصلحاء والأشراف والأئمة والخطباء والمشايخ لاستقبالهم ويكون فى هذا الموكب مائتين من ملازمى جنود الإنكشارية، وينتظر الجميع عند باب القاضى، ولا يوجد فى هذا الموكب أى جنود سوى المائتين جندى إنكشارى المذكورين، وذلك لأن كافة من فى الموكب علماء.

ويقوم كتخدا الوالى بضيافة حضرة القاضى، ويمتطى الجميع الجياد، ويعبر الموكب أفواجًا أفواجًا كلٌ على حسب طبقته، حيث يعبر كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية ثم يعبر جملة العلماء، ويركب القضاة الخيل المزينة وهم هنا ليسوا فرسان الخيل بل فرسان البلاغة والفصاحة، فصحاء اللسان بديعى البيان حفاظ الكتاب الكريم قال فيهم رسول الله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[1]، فمنهم الأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والبكرية ثم مفتيو المذاهب الثلاثة، ثم يأتى بعدهم أغا ملازمى جنود الإنكشارية المشاة، ثم جنود إنكشارية باب القاضى عسكر، ثم المدرسين ثم المحدثين ثم القضاة ثم قسّام الجند ثم نائب الديوان ثم جملة السادات الكرام، ثم نقيب الأشراف ثم جملة علماء الجامع الأزهر وكبير محضرى المحاكم وكتخدا قاضى مصر ثم شيخ الإسلام الحنفى مصطفى افندى البلوى، ويسير هذا الموكب العظيم على دقات الطبول الأربع والعشرين، والنفير حتى منزل كتخدا الباشا الوالى ويأتى الكتخدا إلى القصر ويبلغ الوالى سلام القاضى مولا مصر، وفى نفس اليوم يخرج المولا لمقابلة الباشا الوالى.

---

(١) الحديث ليس بلفظه هذا، إنما أخرج ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله: «.. إن العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ لم يورّثُوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ». سنن ابن ماجه المقدمة (كتاب السنة) (١٧)، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص٨١. حديث رقم ٢٢٣.

فى بيان موكب مولا مصر

فى اليوم الذى يذهب فيه حضرة المولا إلى قصر الباشا الوالى مع طائفته الخاصة يمر محضرو المحاكم الأربعة وعشرين سيرًا على الأقدام مثنى مثنى فى أيديهم العصى، ثم يسير من بعدهم جاويشية الديوان مثنى مثنى على الخيول العربية الأصيلة المزينة، ثم يسير من بعدهم نواب المحاكم الأربعة وعشرين على جيادهم العربية الأصيلة المزينة ومعهم خدامهم مترجلين ثم من بعدهم المحضرين المحليين مترجلين، ثم من بعدهم جنود الإنكشارية أصحاب الخيام يرتدون على رءوسهم العمامات السوداء، ثم ضباط الإنكشارية الذين يُطلق عليهم (چوربجى) ومن بعدهم كتخدا المولا وبجانبهم رئيس محضرى القابجى أصحاب الطربوش من لواء القابجى بإستانبول، ثم يمر من بعدهم نائب الباب ونائب الديوان على جيادهم جنبًا إلى جنب، ثم القضاة الأربعة، ثم القاضى عسكر على الفرس العربى الأصيل وعلى رأسه الطرة وبجانبه الموظف المختص بمسابقات الوالى، يرتدى على رأسه الطربوش وعشرة من مختصى مسابقات الوالى ويكونوا مترجلين، وعندما يصل الموكب إلى القصر يخرج الباشا الوالى إلى القصر ويتقابل معهم ويقدم لهم مائدة عظيمة، بعدها يدور الحديث فيما بينهم وبعد ذلك يمنح الباشا افندى الخلع من فرو السمور ويتصافحان ويُمنح الكتخدا أيضًا الخلعة الفاخرة ويُمنح نائب الباب والباشا المحضر الخلع الفاخرة، وبعد القهوة والبخور يتجولون حتى يصلون إلى القصر مع توابعهم، وهذا هو موكب القاضى عسكر وليس لهم أى مواكب أخرى حين عزلهم.

الفصل السادس والعشرون

فى بيان موكب أمير جرجا

يأتى كافة الأمراء والبكوات والكشافون إلى ديوان مصر لمناقشة حساباتهم، بعد قطع النيل، من هؤلاء الأمراء أمير جرجا الذى يأتى فى موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه أو وصفه، ويقول العربان عن حاكم جرجا إنه سلطان الصعيد العالى وحاكم البر الوالى، ويمكننا القول أن غنيمة مصر كلها تأتى من الصعيد، حيث يحتاج إليها كافة أهالى

مصر. وفى يوم الموكب ينزل الباشا الوالى إلى قره ميدان، ويستطلع الوالى من قصره عن مجىء حاكم جرجا، ولحب أهل مصر لهذا الموكب فإنهم يخرجون لاستقباله وهو موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه، وحاصل الكلام أن هذا الموكب كغيره من المواكب الأخرى المذكورة فيما سبق إلا أن هذا الموكب يختلف عن غيره من المواكب بوجود ثلاثة آلاف جندى من التوفنكجية السود المشاة وألفى فارس عربى بالعمامات وألفًا من صبيان الواحات الذين يحاربون فى بلدتهم وفى بلاد الفونج ويجلبون البنات والصبيان السود الذين يقعوا غنيمة لهم.

وعند قدوم أمير جرجا تدق الطبول الحبشية وتُعزف الموسيقى ويُنفخ فى النفير إيذانًا بقدومه، ومن المعلوم أن جرجا لا يتم بها الضبط أو الربط إلا فى وجود عشرة آلاف جندى وألف مقاتل رومى، ولأمير جرجا حصة فى الإقليم وحكومته نافذة وملكه فى مملكة كبيرة، وتُعد جرجا هى منبع مياه مصر، وبعد مرور موكب أمير جرجا يمر من بعده المهترخانه (الموسيقى العسكرية) ويأتى أمير جرجا إلى حضرة الباشا الوالى فى معية مائتين من خواص غلمانه غير المسلمين.

وتعزف الموسيقى العسكرية وعندما يصل حاكم جرجا إلى حضرة الباشا الوالى ينزل من على جواده ويتحدث معه الوالى بكلمات ثم يُنعم عليه بالخلعة، ويتم الإنعام على أربعة وعشرين كاشفٍ والدفتردار والكتخدا وعددهم سبعة وسبعين بالخلع الفاخرة ثم يقوم الباشا الوالى بمخاطبة الدفتردار والروزنامجى ويصدر الوالى أمره بالإطلاع على حساب أمير جرجا، ويتم تعيين أغا لتحصيل الأموال.

وبعد ذلك يخرج أمير جرجا، حيث يذهب الموكب مع أغا الباشا إلى قصر الأمير، وفى اليوم التالى يقوم الأمير بإرسال الهدايا إلى الباشا وبيانها كالتالى: أربعون فرسًا عربيًا أصيلاً وعشرة نبال وعشرة طواشى وعشرة أكياس وخمسة آلاف أردب من الشعير وثلاثة آلاف أردب حنطة وهدايا أخرى قيمة مماثلة لها، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وخمسة جياد عربية أصيلة وتُعطى هدايا أخرى

إلى أصحاب اثنى عشر مرتبة كلٌ على حسب مرتبته لا يقبل الزيادة أو النقصان، وبعد توزيع الهدايا يقوم أمير جرجا بإظهار حسابه ثم يُحصل ما تبقى فى زمته من الأموال الأميرية.

الفصل السابع والعشرون
فى بيان موكب الأسطول الهمايونى

يكون هذا الموكب فى حالة فتح إحدى القلاع فى إحدى الإيالات أو فى حالة مولد أو ختان أو زفاف أحد الأمراء أبناء السلطان أو فى حالة جلوس السلطان على العرش، حيث يفد من الآستانة أحد أغوات السلاح أو أغا أو أحد أغوات الخاصكية أو رئيس البوابين، وعند وصول الأغا القادم من الأستانة إلى بلبيس يُرسل أحد الأشخاص إلى كتخدا الوالى بإرسال الخبر إلى مطبخ العادلية وإلى جنود الفرق السبع، وكما هو معتاد أيضًا يذهب كتخدا الوالى مع الجنود بصحبة المهترخانه إلى العادلية ويخرج الموكب من باب النصر، وتُنصب الموائد ويتم تناول الطعام ثم يمر الموكب ويضم الأغا القادم وكتخدا الوالى، داخل مصر على دقات الموسيقى العسكرية ويخرج الباشا الوالى لمقابلتهم عند ديوان الغورى، وتُقرأ الفاتحة فى الديوان ثم يُقرأ الفرمان الشريف، ويقوم كل جاويشية الديوان بالدعاء ثم يصدر الوالى فرمانًا إلى الصوباشى بأن يأمر الدلالين بأن ينادوا فى الناس لتنصب الأفراح أربعين يومًا وليلة بمناسبة الخط الشريف. ويُمنح الأشراف الخلع الديوانية وتُطلق المدافع من القلعة وتعزف الفرقة العسكرية الموسيقية بجوار القلعة، بعدها تُزين مصر أربعين يومًا وليلة أو عشرين يومًا وليلة على حسب ما يرد فى الخط الشريف وتكون زينتها غاية فى الجمال لا يستطيع اللسان أو القلم وصفها، ويظهر فى تلك الأيام ويكون ظاهرًا للعيان مَن فى مصر مِن أصحاب رءوس الأموال والأعيان والمنعمين ورجال الدولة حيث يقوم كل شخص بإظهار ما عنده من زينة وجواهر وتزيين القلعة والحوانيت ويُقال عن مصر حينئذ أم الدنيا وعروس الدنيا، حتى أن الفقير إلى الله[1] كان فى مصر فى هذه السنة فى عهد الكتخدا إبراهيم باشا ورأيت الإحتفالات

(١) يقصد المؤلف نفسه.

المبهجة التى تمت بمناسبة فتح قلعة قمانجه فى عهد السلطان محمد خان وتحيرت كثيرًا لتلك الأوصاف، وكانت لياليهم تجل عن الوصف، فى نفس الوقت تكون هناك مشكلة بالنسبة للجنود القائمين على الضبط والربط فى مصر حينئذ، ودائمًا ما يُقال ما لى أبالى لأن مصر فى تلك الأيام تكون أم الدنيا وهى هبة النيل إنها جلجلة مصر وطنطنة مصر.

حقيقية إن إستانبول مدينة كبيرة إلا أن أهلها على ضبط وربط، أما طائفة الجند فى مصر يرفعون القيد عن الغنى والفقير والشاب والشيخ، وسرعان ما يتشاجرون كالخيل الشرس، فكلهم مجبولون على الشقاوة، ولا يستطيع أحد أن يسيطر على خدامه ومماليكه وأهله وعياله. حيث يقومون بامتطاء الجياد غير المروضة يكون كل شخص فى عالمه الخاص يلهو ويلعب، الكل فى حالة فرح وابتهاج، ولكن فى حالة فتح إحدى القلاع على يد الوزير الأعظم تكون الزينة والاحتفالات اثنتى عشرة ليلة فقط.

وإذا ما فتح القائد العام قلعة عظيمة تكون الإحتفالات عشرة أيام وعشر ليال أو سبعة أيام وسبع ليال، ويكون الناس فى مصر سعداء بهذا القدر والإقليم الأصلى المشهور فى ذلك الإقليم الآخر وجزيرة القاهرة، حيث يميل أهالى مصر إلى اللهو واللعب والموسيقى والغناء وأهلها كثيرون جدًا، ولأنهم يملكون أموال فرعون فإنهم يصرفونها فى اللهو واللعب والموسيقى والغناء. وبالرغم من أن عزيز مصر غلب زليخة إلا أن أهل مصر ما زالوا منذ ذلك الوقت وحتى الآن مغلوبين لمخدوميهم فهم دائمًا يميلون للشقاوة والظرف. وإذا ما لاحت لهم الفرصة يبتهجون إبتهاجًا عظيم حتى الاحتفالات التى قام بها الكتخدا إبراهيم باشا فى قره ميدان بسبب فتح قلعة قمانجه أنفق على من يقومون بالألعاب النارية فى تلك الإحتفالات عشرون كيسًا من النقود المصرية فى مصر بلد المعرفة ويضاء فى قره ميدان مائة ألف قنديل تجعله بمثابة ميدان النور ـ حفظك الله تعالى ـ.

الفصل الثامن والعشرين
فى بيان خزينة مصاريف شموع وبخور
وعود العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة

يتم ترتيب هذا الموكب بعد موكب الخزينة المارّ ذكره، ولا يوجد فى هذا الموكب جنود من الأساس، إلا أنه يوجد بهذا الموكب رئيس عمال المسك ومحصل خراج الباشا الوالى وهؤلاء يقومون بجمع الشمع الكافورى والشمع الدهن الملمّع، وبالرغم من وجود هذا الكم الهائل من الحمالين فى بولاق إلا أنهم جميعًا يشتغلون بجمع الشمع، ويحضر الحرفيون قنطارًا من الشمع الأبيض الكافورى من الشمع خانه على الأوانى الخاصة به فوق رءوسهم، حيث يوجد فى تلك الأوانى البخور والمسك والعنبر وخمسين وعاء ضخمًا من ماء الورد المعطر وخمسين شمعة من العنبر وإثنى عشر ألف قنديل وهذا كله خاص بمصر، ويوجد بكل قنديل زيت يحترق، ويتم جلب ألف قنطار من الزيت المعطر كل عام من أرض المغرب يشبه كثيرًا ماء الحياة وتُحمل هذه الأشياء إلى الديوان بواسطة الحمالين، ويخرجون فى هذا الموكب العظيم فى حضرة الباشا الوالى فى ديوان الغورى داعين، «الله ينصر السلطان» حيث يحمل كل الحرفيين الأوانى الخاصة فوق رءوسهم بخلاف الخمسمائة صينية المحملة بالشمع والعنبر وما ذكر، ويقوم الباشا الوالى بكسر عدة شمعات ثم يخلع الخلع الفاخرة على رأس كلٍ من حامل المسك ومحصل الخراج والشَمَّاع، ويأتى ناصبو الفخاخ ويمرون جميعًا، ويتم تسجيلهم فى دفتر الأحوال اليومية، ويظهر رئيس عمال المسك فى مكان على يمين الباشا الدفتردار، ويتم تحصيل تلك الصناديق وحفظها حتى يتم تسليمها إلى قبطان السويس فى حضرة الباشا، وتُؤدى أجرتها من الجانب الميرى، وهذا أيضًا من الخزينة.

الفصل الثانى والعشرون
فى بيان أحوال الطعام والشراب
الذاهبة إلى المطبخ السلطانى
ومخزن الطعام والشراب الخاص

عند تحصيل هذا المال السلطانى لا يسير موكب للجنود المصرين إلا أن وزير الأمراء المصرين يقوم بإلباس أمير مخزن الطعام والشراب السلطانى خِلعة.

ولا يؤمر أى شخص بهذا سوى أمين مخزن الطعام والشراب السلطانى ومعه خمسمائة رجل يقومون بتحصيل المأكولات من قضاء فرسكور ومدينة المنزلة وبندر دمياط وقضاء برميجال وبندر رشيد، حيث يقومون بإحضار مائة ألف أردب أرز خمس مرات من الأماكن التى يُجمع فيها الأرز والشعير، وألفى قفص سكرى وعمادى، وثلاثمائة فرد من القهوة ومائتى ألف أردب عدس ومائتى ألف أردب حمص ومائة حفنة من الحنة وخمسمائة زنبيل تمر ناضج وسائر المأكولات.

وتوجد بمدينة رشيد مخازن أميرية، وتتجمع كلها وتُدخر مع العمل، وفى ناحية الأستانة يأتى خليفة من خواص الحلوى خانه وبالرغم من وجود شجر الخيار والحمص والليمون فى مدينة الفيوم وفى كل حدائق وبساتين مصر إلا أنه يتم جمعها بمعرفة الميرية، ثم يقوم دفتردار الخزينة بجمع تلك المحاصيل من مدينة الفيوم مع الماء المعطر وماء القاضى وماء الورد من العطريات والدهنيات ومائة قنطار من الورد الممسك وبعض الزهور التى تنبت فى مصر مثل النيلوفر والليمون والبنفسج ويجلبون من المعاجين سبعين نوع من المعاجين الممسكة المبهجة مثل الترياق الفاروقى وفاروق الأربعة ومعجون العقرب ومعجون السقنقر البرى ومعجون التمساح الأبيض الذى إذا وضع فى العين يجلو البصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود المأخوذة من خزينة مصر بناء على القانون السلطانى

لا توجد فى مصر مواكب عسكرية سوى مواكب عمال الذخيرة وعمال البارود وصُنّاع الطلقات النارية، وفى زاوية من قصر الباشا الوالى يوجد مقرين لصنع الذخيرة المعروف بالبارود خانه، يوجد بكل مقر منها أربعين شاب يتجولون به ليل نهار ويطلقون الأعيرة الناريه، يا له من مشهد عجيب، ولكنه ملعون فى نفس الوقت مثل البارود، وعندهم البارود مكتمل، ويقومون بإظهار كفاءة البارود للباشا الوالى فى الديوان، حقيقة إن البارود المصرى أعلى فى الدرجة من البارود البغدادى لا سيما وأن مادته المعدنية لطيفة فهى بيضاء مثل حجر الطاحونة.

وتوجد سبعون كرة بارودية أميرية ويكون الملتزمون مكلفين بهذا العمل، ففى كل أسبوع يتم جلب مقدار حمولتين بعير من مادة البارود السماة (الكهرجله) وتدق الطبول وتُعد الطبول لذلك، حيث يتم تسليمها لرئيس دار الذخيرة، ويقوم العمال المكلفون بإحضار مادة البارود بعرضها على الباشا الوالى ليعاينها فإذا أعجبته يقوم الوالى بإهداء رئيس دار الذخيرة ورئيس الفرق العسكرية والأمناء الخلع الفاخرة، وتوضع السبعة آلاف قنطار من البارود فى الأجولة الخاصة بها والمصنوعة من الصوف فى البارود خانه بالقلعة حيث يُشد عليها بجلود الإبل وتُحمل على ثلاثة آلاف دابة وثلاثة آلاف ناقة ويسير فى موكب ويتم التنبيه على الحدادين ونافخى الكير والمدخنين بأن موكب الذخيرة سوف يمر ويُنبّه عليهم بعدم إشعال النيران فى طريق الموكب وتنطفئ نيران حوانيت الحدادين وغيرهم. كما لا تشتغل النيران فى الخانات الموجودة على الطريق الرئيسى فى ذلك اليوم، بل إن الأشخاص يخرجون من بيوتهم فى ذلك اليوم فالخطر محقق، فبضعة آلاف دابة تسير محملة بالبارود، وتبدأ الأحمال فى السير أفواجًا أفواجًا ويسير بجانب كل فوج شخص يمسك بيده عصا إذا ما وجد أى نيران يطفئها على الفور، ويمر أيضًا موكب آخر به ستة آلاف قنطار من فتيل القطان ويتم تحزيم تلك الحمولة أيضًا وتحمل

على الدواب والإبل ويسير بجانب هذا الموكب ثلاثة آلاف من البربر فى أيديهم العصى ينبهون الفلاحين بعدم إشعال النيران فى ذلك اليوم. حتى أن مفلسى أغوات الباشا الوالى كانوا يحلفون قائلين: «لقد خرجت بثلاثة إحتياطى وأحدهم يقول لقد خرجت بستة إحتياطى» ثم يسير بعدهم موكب البارود، وبينما هم سائرون ينبهون الأهالى بخطورة البارود الأسود وأنه مثل البلاء الأسود إذا انفجر، ثم يعبر رئيس عمال الذخيرة بخلعة فاخرة وحوله خمسين غلام من خواصه، وتدق الطبول أثناء سير الموكب، وعندما يصل الموكب إلى بولاق تملأ السفن ومن هناك إلى رشيد ومن رشيد إلى الإسكندرية ثم يُحمل البارود على السفن المسماة قادرجه، ويأخذ القبطان الحجة لمسيره بالبارود وبذلك يكون الخلاص، وهذا أيضًا أحد خزائن مصر والسلام.

الفصل الرابع والعشرون
فى متحصلات شيخ مصر
والستة والأربعين قاض فى ولاية مصر

فى زماننا هذا يتم تحصيل أموال زائدة، حيث يحصل لمولا مصر سنويًا ثلاثمائة كيس وهذا مقام القضاة، ثم يأتى بعده قاضى مكة ثم قاضى إستانبول وهذا طبقًا لما جاء فى قانون السلطان محمد خان.

الفصل الخامس والعشرون
فى بيان خزينة مصر من أوقاف السلاطين الماضية
وأوقاف الوزراء وأعيان وأشراف القضاة

عندما فتح السلطان سليم مصر كان خيره بك وزيرًا عليها، وكمال باشا زاده أحمد افندى قاضى العسكر بها. وتحرر بقلم الغزالى فى سجل مصر الخاقانى أن مصر كان بها سبعة وسبعين ألف وقف لله تعالى، يعمل على إدارتها إثنى عشر ألف موظف ويؤمر كل قاض يأتى إلى مصر بأمر السلطان بالتفتيش وعمل فحص لتلك الأوقاف ويبلغ أدنى حد للأوقاف فى السنة الواحدة ما بين مائة وألف قطعة ذهبية، ولتلك الأوقاف قرى وأرزاق وأفدنة مرتبة يعمل عليها مديرون، كما يوجد لها أموال أميرية، وعلى ما سجله الغزالى فإن تلك القرى تحصل لمصر ثلاث خزائن وهذا مسطور فى دفتر خانه مصر.

الفصل التاسع والعشرون

فى بيان الذى يُتحصل من الأموال المصرية

أقر قانون السلطان سليم فى مصر أنه فى مكالمة السلطان مع الولاة المصريين يُحصل أربعمائة وسبعين كيس من الأموال المصرية، ويُخرج معه عند السلطان كل يوم ألف عملة للتصدق على الفقراء، ويكون مجموعه السنوى تسعون كيس وبخلاف ذلك يأتى إلى مصر كل سنة على سبيل الهدايا مقدار خزينة من المجوهرات والهدايا القيمة التى توزع على الفقراء، كما يحصل أيضًا خزنتين من الأموال سنويًا، وعندما كان الفقير إلى الله[1] فى مصر أيام وزارة الكتخدا إبراهيم باشا أمر بتحصيل ثلاث خزائن لمصر، وكان الوزير الأعظم كوپرلى دده أحمد فاضل باشا هو حامى تلك الخزائن القادمة من الأستانة، وعندما ظهر الطاعون فى مصر أعطيت التطعيمات تسع مرات فى ثلاثة شهور فى إحدى القرى، وفى النهاية لم يُعَمَّر هذا الرجل ولكنه كان مثال الكرم مثل حاتم الطائى ـ رحمه الله ـ، وتصرف أحد الخزائن الثلاث على الطعام، والإثنتان الباقيتان تبقيان له.

الفصل الثالث والثلاثون

فى بيان الخزينة التى يحصلها وزير مصر للأغوات أصحاب المراتب الثلاث والعشرين

إذا ما كان الكتخدا رجلاً بصيرًا بالأمور مدبرًا فإنه يُحصل ألف كيس من المال، أما إذا كان غير أهل لذلك فإنه يفتح فمه للهواء ويُحَصل من المدينة وما حولها خمسمائة كيس فقط، وعندما كان الفقير إلى الله[2] فى مصر كان الوزير الأعظم بها درويش محمد باشا وأخبرنى بأنه أثناء وزارته لمصر جمع منها خمسمائة كيس من المال. وتحصيل خزنتين من المال لكلٍ من أمين الديوان والكاتب والكتخدا والخزينه دار وأغا الرسائل وأغا دمياط وأغا السويس وأغا رشيد وأغا الإسكندرية وأغا بنى سويف وأغوات المنيا ومنفلوط وجرجا يُحصل لهم جميعًا خزنتان كما يُحصل خزنتان أُخريان لغير الأغوات، والخمس أغوات من العبيد السود.

(١، ٢) يقصد المؤلف نفسه.

الفصل التاسع والثلاثون

فى بيان الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة وعشرين فى مصر وأمراء الشراكسة الأربعين وسائر الأعيان

بعد أداء كافة الأموال الأميرية فى إيالة مصر وتسجيلها فى سجل الروزنامه ويُحصل الفائض منها وهو خمس الخزائن لجملة أعيان مصر على أن يحرر هذا فى دفتر الأحوال اليومية، والحق أنه يُحصل أزيد من هذا، حتى أن الكتخدا إبراهيم باشا عندما كان فى منصب عزيز مصر حُصلت ثلاث خزائن من قرى مصر للأشراف فضلاً عن الأعيان ومجاورى السلطان القاطنين فى إستانبول فلما عرض عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا الأمر على إبراهيم باشا، واستدعى عبد الرحمن افندى الروزنامجى وسأله لمن هذا المال بعد أداء حق السلطان فقال عبد الرحمن افندى «والله يا سلطانى تبقى خمس خزائن تُحصل للأعيان والأشراف والأمراء».

ثم قام إبراهيم باشا بتحرير ثلاثة آلاف عبد لمكة وفى حج عام ٨٢-١هـ عُزل الشريف سعد وأصبح الشريف بركات شريفًا على مكة بدلاً منه، وبهذا الترتيب تم تحصل ثمان خزائن من مصر فى تلك السنة. ولما كشف عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا السر للسلطان، أمر جان بولاد زاده بقتله.

الفصل الرابع والأربعون
فى بيان تحصيل ثلاث خزائن أخرى
للحرفيين من خزينة مصر

وجملة قرى إيالة مصر وإيالة الصعيد ألف قرية تنقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول منها يُعطى جملته للأموال الأميرية السلطانية، وهى ما يعرف بالبدل، القسم الثانى القرى الكشوفية، القسم الثالث القرى الموقوفة، والقسم الرابع القسم الخاص بالكشاف والأمراء والملتزمين، إلا أنه يتم تحرير فائض تلك الخزائن لأصحاب هذه القرى، ولتلك القرى شيخ بلد وكتّاب وشهود وأقباط ويتم تحصيل خزينة لهم تحرر فى السجل.

الفصل الثامن والأربعون
خزينة مصر

بالرغم من وجود رعايا وبرايا من الرجال بلا حد ولا حساب فى قرى الإيالات المذكورة فيما سبق، إلا أنهم يقومون بزراعة أرض مصر ويحصدونها سبع مرات فى السنة الواحدة ويُجنى منها سبعون نوع. وأرض منبتة كهذه ورجال مجتهدون، ولا يوجد فى الدنيا فلاحين وقوم جبارين ومَردة مثلهم، ويحصلون المال لأنفسهم بأى وجه كان سواء كان طائرًا فى السماء أو سابحًا فى البحر أو سائرًا على الأرض، ويعطون العُشر (المال الميرى) لأغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكشافيهم ويبقى لهؤلاء الرعايا خُمس الخزائن بعد تصفية كل الديون ويحرر هذا فى سجلات مصر، وبذلك يكون متحصل هؤلاء الرعايا ثلاث وخمسين خزينة.

الفصل الخامس والخمسون
فى بيان الخزينة المحصلة من طائفة التجار
فى بنادر مصر السبعة

فرض الكتخدا إبراهيم باشا لكلا من رشيد والإسكندرية كيسًا من المال كالتزام يومى لهم، وفرض لبندر دمياط التزام سنوى مائة وأربعون كيس وفرض لبولاق وباب النصر ومصر القديمة والبساتين والمعادى مائة وخمسين كيس كالتزام سنوى عنها، وفرض بندر السويس ثلاثمائة كيس يقولون عنها أمانة الربيع، وبعضهم كان يُحصل خمسمائة كيس، وعلى هذا الحساب يتم تحصيل خزينتين لمصر من البنادر السبعة الموجودة بها وجملة حسابهم سبع وخمسين خزينة.

الفصل الستون

فى بيان الأموال التى تحصلها خزينة مصر

من التجار القادمين إلى البنادر السبعة

يأتى جميع التجار من كافة أقاليم الدنيا السبعة من العرب والعجم والهند واليمن ويجلبون الأمتعة والبضائع ويبيعونها ويُحصلون من ذلك ثلاث خزائن لمصر.

الفصل الخامس والستون

فى بيان تحصيل خزينتين لمصر من الحرف

البالغ عددها مائة وسبعين حرفة

ويقولون إن الحجاج المسلمون القادمون من الديار الإسلامية للأقاليم السبعة يصرفون ثلاثة خزائن مصرية وقد حرّر هذا العافون الواقفون..

الفصل الثالث والسبعون

فى بيان خزينة الحبوب الواردة

إلى أنبار يوسف. عليه السلام. فى مصر

هذه المخازن موصوفة فى أوصاف مصر القديمة وهى من بناء سيدنا يوسف، وقد ورد ذكر لسبب بناء تلك المخازن فى آيات سورة يوسف، وإذا دخل معه السجن فَتَيَان، وللرؤية التى رآها الملك الريان الواردة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، نزلت تلك الآية عن سيدنا يوسف على طريق القياس ومصرح بذلك فى جميع التفاسير ولكننا حررناه هنا على سبيل الاختصار حيث رأى الملك الريان رؤية قصها على سيدنا يوسف، ففسرها سيدنا يوسف بأنه سوف تكون سبع سنوات قحط، وأمر ببناء تلك المخازن. وبينما العمل جارٍ فى بنائها، توفى الملك وبمرور الأيام أوتى سيدنا يوسف الخلافة والنبوة، ومسطور أن سيدنا يوسف هو من قام ببناء تلك المخازن وهى أربعة وما تزال

تعمل حتى الآن، وفى كل سنة يقوم جملة الأهالى وأغوات الفرق السبع والباشا والقاضى بزيارتها والدعاء عند أبوابها، ويقوم أمين تلك المخازن بنصب الرايات عند بابها وينصب مائدة عظيمة للوالى الباشا ويعطى لأمين المخزن جوادًا عربيًا أصيلاً له جراب مجوهر وثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وألف أردب من الغلال ويُحسن عليه بالخلعة الفاخرة.

وينبه عليه بالاستقامة، وبعد العصر تنتهى المأدبة ويُعين أغا الباشا الوالى ناظرًا على تلك المخازن ويُمنح أيضًا جوادًا عربيًا أصيلاً مزينًا وخلعة فاخرة.

ويُمنح چورباجى الأنبار وكيالها وكاتبها وجملتهم ثلاثة وعشرين شخص الخلعة الخاصة بعزيز مصر، ثم يذهبون إلى منازلهم بعد أن يتبادلون التحية وتُنصب الراية ويعم السرور جملة أهالى مصر، ويقوم كافة تجار مصر ومحتكرو السلع بإخراج الغلال من المخازن ويوزعونها ويبكون لأنهم يبيعونها بسعر زهيد، ويمكننا القول بأنه فى حالة عدم امتلاء تلك المخازن سيحدث القحط فى مصر أم الدنيا حيث يحتاج لهذا المخزن ٤٧ر٧٠٠ شخص من جملة طائفة جنود مصر والأيتام والمتقاعدون، وطائفة النساء والطواشية والجوالى وطبقًا لتسجيلات بيرام باشا يحتاج إلى أنبار يوسف هذه مائة ألف شخص لستة عشر مرة[1]، ويوجد للجنود عليق وجرايات بها، إذا لم يحصل الجنود عليها فى خلال شهرين تضيق الدنيا على رأس والى مصر أم الدنيا.

وتمتلئ مخازن يوسف المذكورة من بركات وخيرات إيالة جرجا وإيالة أعالى الصعيد، وكتّاب تلك المخازن يعدون أقلام مختلفة، فى أيديهم سبعون خليفة وسبعون تَرَّاسًا وسبعون كحالاً وسبعون مُغَربلاً، حيث يقومون بغربلة غلال الجنود بها وينظفونها، وكل هؤلاء هم جملة خدام المخزن، ولكن كتابهم يحسبون حسابات المخازن قيراطًا قيراطًا، ويأتى كل عام إلى مخزن يوسف من غلة الحنطة ثلاثة آلاف أردب ومن غلال الشعير

(١) يعنى ستة عشر ضعفًا.

( )[1] ومن غلال الفول ( )[2] أردب، ولو اقتضى الأمر بيع تلك الغلال بالمزايدة فى السوق السلطانى فإن هذا يحصل لمصر ثمانِ خزائن، وفى حالة عدم فيضان النيل ـ اللهم عافنا ـ فإن كافة العباد يطلبون هذه الخزائن الثمانية من الباشا الوالى وبهذا تحقق أنهم ثمانِ خزائن بالضبط، ويُطعم من مخازن يوسف غير بنى آدم الطيور التى تطير فى السماء، حيث تأكل الطيور غلال الفول الموجودة فى المخازن فى حالة عدم وجود سقف للمخازن.

ودائمًا ما تمتلئ تلك المخازن وتفرغ، ثم تمتلئ مرة أخرى، إنها دورة الدهر، وجملة أهل مصر يتكففون منها، وعندما كان الفقير إلى الله[3] فى مصر لمدة ثمان سنوات كان له نصيب من أنبار يوسف، ويقومون بتولية منصب ناظر أنبار يوسف لأشخاص غير مؤهلين لذلك ونظرًا لعدم النظر فى حساب هؤلاء الأشخاص شهر بعد شهر فإنه ينكسر وينحبس، والوزراء الذين يحترزون من هذه الأشياء الثلاثة يخرجون من مصر بسلام. ولم يأتى مصر حتى وقت قريب وزير مدبر ذو بصيرة مثل الكتخدا إبراهيم باشا. وعصره كان العصر المنفرد فى علم الحساب، وكانت الإيرادات والمصروفات مع بعضها فى تلك المرتبة وجُمع على هذا القدر ألف أقجه يوميًا، ووضعت كافة السجلات فى صندوق ذو سياج فضى وربُطت إلى خزينة مصر، ثم عُزل الكتخدا بعد ذلك ووصل إلى العادلية بسلام، ولكن بعد شهرين دخل حضرة حسين باشا جان بولاد زاده إلى مصر ودعا الكتخدا إبراهيم باشا للمحاسبة، وظل فى ذمته من بقايا خزائن يوسف مائتين وسبعين كيس فلما طالبوه بسدادها أداها فى طرفة عين. لقد كان رجلاً منعمًا، وبقى فى ذمة الأمناء والكشافين والملتزمين ثلاثمائة كيس لإبراهيم باشا، ولم يستلم حسين باشا مهمته على دين إبراهيم باشا، وقال إنه قادر على تحصيل ماله فقط وقال ينبغى أن يكون مكانه رجلاً يقدر على تحصيل تلك الأموال.

ووضع إبراهيم باشا على بقايا الكتخدا وعُين إبراهيم باشا متصرفًا على الشام، وأصبح مخزن يوسف على الأرض لا سيما وأن اللصوص كثيرون والمستقيمون قليلون وأصبح المخزن فى ذمة الله ليستره الله، وخلاصة الكلام أن هناك من يقولون أن مصر أم

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) يقصد المؤلف نفسه.

الدنيا، حقًا إنها تطعم جميع الأمم، ويقولون أيضًا أن لو خرب العالم تُعمره مصر، ولا يعجز اللسان عن وصف جمال مصر وأحوالها وأطوارها، إلا أن الفقير إلى الله قليل البضاعة كثير السياحة حضر إلى القلعة، واجتهد أن حرر كل ما رآه فى مصر ولا يترك شيئًا، ولم يترك شيئًا إلا وذكره، فحرر أوصاف مصر، ولم يترك مقدار القطرة بالنسبة للبحر أو الذرة بالنسبة للشمس إلا وذكره.

وذكرنا أن جملة الخزائن المصرية المشروحة على المنوال المذكور ثمانين خزينة هى جملة خزائن مصر منها ما هو بموكب ومنها ما هو بدون موكب، فى كل خزينة منها ألف ومائتى كيس، وكما أن مصر هى أم الدنيا فإن كل تلك الأموال تكون ملكًا للسلطان ـ أيد الله خلافته إلى انقراض الدوران، على رتبة آل عثمان ـ وتكون جملة مواكب مصر ومنها موكب دخول وخروج وزير مصر وفيضان النيل ومواكب الخزينة وهى خمسة وثلاثون خزينة ويوجد أيضًا موكب يستمر عشرة أيام فى السنة حين ذهاب السلطان إلى أنبار يوسف وموكب ذهابه لأداء الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة، ومن المواكب التى لا تدخل فى هذا الحساب أيضًا موكب ذهاب وزير مصر مرتين أسبوعيًا إلى قدم النبى والبساتين وأم القياس وقصر الغورى وقصر العينى والسبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى والعادلية والمطبخ خانه وقد تحرر هذا فى تشريفات السلطان سليم خان وكتبت كلها فى مواضعها.

الفصل الثانى والخمسون

فى تشريفات قوانين عوائد وزراء مصر

يُطلق على الخاصة الهمايونية للباشا اسم الكشوفية الرئيسية، وهى أربعمائة وثمانون كيس، كما يتم تعيين ثلاثة آلاف پاره يوميًا أى تسعون كيس سنويًا من نفقة السلطان للتصدق بها على الفقراء ويقوم أمين بيت المال بإدارة بيت مال الباشا بخلاف بيت مال الانكشارية. أما الباشا فيدير جملة بنادر مصر السبعة وكذا أموال من توفوا ولا وارث لهم فى القرى وكذا معاشات الجند الذين لا وارث لهم، ويعطى أغا إنكشارية مصر للباشا الوالى ستة أكياس من المال، يأخذ الأغا من بيت مال الإنكشارية عشر أكياس

وتوجد سبع نظارات تحت إدارة أغا الإنكشارية، كما أن نظارة السليمانية والدشيشة الكبرى، حيث يصل إلى مكة والمدينة كل سنة أردب ( )[1] من الغلال من أغا الإنكشارية.

ويأخذ أغا الإنكشارية اثنين وعشرين كيسًا من الوالى الباشا لتقديمها إلى عربان الدشيشة الكبرى ويعطيها لشيخ العرب صقر، فيقوم شيخ العرب صقر مقابل هذا بإعطاء الوالى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة خيول عربية أصيلة وخمسين جملاً، ويُعطى كيسًا لكتخدا الباشا الوالى وكيسًا للأغا لكونه فى حكم أغا الإنكشارية.

وتُنقل الغلال إلى السويس من عنابر بولاق بمائة ألف جمل ثم تنقل من هناك إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا الوالى يقوم كتخدا الجاويشية بتقديم عشرة أكياس له وجواد عربى أصيل مرصع ومزين بسرج فضى وذلك فى الصالحية، كما يقدم له هدايا أخرى قيمة ويقوم رئيس الجنود المتفرقة بتقديم ثمانية أكياس سنوية للوالى، ويعطى كتخدا الباشا كيسين ورئيس الديوان عشرين ألف پاره، كما يقوم رئيس الجنود المتفرقة بإعطاء سبعة آلاف پاره لأى محافظ قلعة يُعزل أو يتقاعد وذلك لكونه من لواء الجند المتفرقة وذلك على حسب قانون السلطان سليم، وتُسند نظارة خان الباشا الوالى الموجودة فى رشيد لرؤساء الجنود المتفرقة، ويأتى من تلك النظارة ثلاثة أكياس، ويقدم رئيس عمال المسك للباشا الوالى جواد مزين وذلك عندما يأتى إلى مصر، ولأن رئيس عمال المسك لم يقم بتقديم هذا الجواد لإبراهيم باشا، بل قدمه إلى قاضى مصر لدى وصوله ويقدمه له رئيس المسكية ويحسب من كشوفيته ويُلزم بتقديم ثمانية آلاف پاره ويسلمها للباشا الوالى ثم يعطى لخازن الوالى الباشا عشرة آلاف، وخازن الكتخدا أربعة آلاف، وكيسًا واحدًا لكتخدا.

ويؤخذ من رئيس عمال المسك زيت الشمع حيث يُقدم للباشا والكتخدا وسائر نواحى المدينة كما تؤخذ منه كمية من قناطير شمع العسل والبخور والعنبر إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا إلى مصر يقيم فى العادلية ثلاث ليال وثلاثة أيام، وتُسلم كمية البخور والعنبر والمسك إلى أمير السماط، ويأخذ أجرته من الأموال الأميرية ويأخذ الباشا كيسًا من المال كلما جدد مقام رئاسته عمال المسك «مسكجى باشى»، ويُعطى

(١) بياض فى الأصل.

الباشا هدايا من أمين العنبر عندما يصل إلى مصر عبارة عن سبعة عشر كيسًا وسبعة طواشى وثلاثة جياد غير مزينة. وذلك محسوب على الجواد الذى يُعطى لقاضى مصر عند قدومه إليها، ويُعطى كتخدا الباشا الوالى كيسين وفرس وطواشى وتكون جملة ما يدفعه تسعة عشر كيسًا.

ولكن أمين الأنبار يأخذ ثلاثة آلاف پاره، ويأخذ رؤساء الغلال عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين قرشًا لكل واحد منهم، ويُعبّرون عنها بلفظ الكَرَّتين أى فى الذهاب الثانى لهم يأخذون خمسة أو عشرة قروش ويكون جملة ذلك خمسون كيسًا.

ولو أُخذ المال منهم جميعًا تكون جملته مائة كيس ولكن طائفة العبيد لا يرتضون ذلك وتحدث بينهم ضجة، هذا بالإضافة إلى أن هذا المال يحصل من غلال العبيد وهم لا يوافقون على ذلك، ويكون أحد أغوات الباشا ناظرًا للمخزن ويقوم هذا الأغا بتقديم ثلاثة أكياس كشوفية وطواشى للباشا الوالى، ويأخذ الأغا الناظر أيضًا من أمين المخزن كيسين إما على سبيل الهدايا أو على سبيل العيدية.

ويلزم فى الرجل الذى سيكون أمين الأنبار أن يكون متعقلاً فى عقلية أرسطو فى علم الكتابة، فهو مسئول عن جملة حساب الغلال حين عزله، ويؤخذ من كل شخص أقچة أو أقچتين كحساب عن الخاتم ويجلبون هدايا عديدة، أما أغا الرسائل فيعطى للباشا الوالى خمسة وعشرين كيسًا ويحصل هو من أربعين إلى خمسين كيسًا، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس ويعطى لأمين الديوان والخازندار كل واحد منهم عشرة آلاف پاره، ويأتى إلى كتخدا الباشا كيس من الأموال من أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا كلٌ على حده، وقد حررنا الهدايا الكشوفية التى يجلبها أغا جرجا فى موكب أغا جرجا، وتوجد كشوفية أخرى لرئيس الديوان تبلغ خمسة عشر كيسًا على حسب القانون، يأخذ منها كافة الأمناء، والملتزمون والكشافون، ويأخذ رئيس المراتب والمناصب فى القصر أربعين پاره، ويأتى سنويًا أربعين جوادًا كهدايا، ويأتى عشرون عُدّة حصان، ويحصل سنويًا لكتخدا الباشا الوالى من الأمانات السبعة ومن كافة الكشاف والملتزمين والبكوات ومن القرى المباعة أربعمائة كيس من المال، وعند قطع

النيل توجد كشوفية أخرى عبارة عن أربعين عُدّة حصان وخمسين فرسًا وجملة المحصول السنوى الذى يُحصل من البنادر السبعة المجاورة للمدينة ومن جملة الأمانات ومن أمين الصرة ومن أمين الخردة ومن الضرب خانه (دار سك العملة) مائتى كيس.

ويقوم أمين الخردة بتعيين الخبز واللحم، وتأمين كافة ما يلزمهم ويلزم دوابهم، ويأخذ الأغوات الداخلين للمدينة ثمانية عشر ألف پاره من ناظر الضرب خانه أما الصرّاجون فيأخذون عشرين قرش على مدار ثلاثة شهور من رئيس الصرافين.

ولكل من وزارتى جمرك الربيع والكتاب السماسرة اليهود والصرافين وخازن المدينة وصراجى المدينة حوالات خاصة بهم. وقد تحررت حوالاتهم فى مواضعها.

وجملة خدام الديوان والكيسه دار وكيسه دار رئيس الديوان اثنين وثلاثين شخص، ولكل منهم يوميًا أقچتين من المال المیرى إلا أن إبراهيم باشا ألغى هذا. كما توجد حوالات من البرسيم والحشائش فى حدود الملتزمين والأمناء والكشافين بمقتضى قانون الأغوات أصحاب المراتب الأربعين لكتخدا الباشا، ويوجد أيضًا أربعين كيس لجملة أمناء وكشافى وملتزمى خزينة دار الباشا.

ويتحصل سنويًا أربعمائة كيس لأمير آخور الواح الباشا. ويقوم بإحدى الضيافات بإهداء الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وجواد مُزين وكافة التبن وأعلاف الخيل والإبل هى مسئولية أمير الآخور. ويقدم للباشا سنويًا مائتى جواد عليهم القماش والصوف.

وبذلك تتم كافة الخزائن والمواكب بناء على قانون مواكب الخزينة ويكون تمامها فى شهر يوليو الموافق شهر توت بالحساب القبطى ولا يبقى فى السنة من الخزائن والمواكب إلا موكب مولد السيد أحمد البدوى.